

العنوان :

العلية عند دفيد هيوم

مذكرة مكسلة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف الأستاذ:
خوضر رياض.

إعداد الطالبة:
بتقة عائشة.

السنة الجامعية: 2017/2016





شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه، ويدفع نقمه، ويكافئ مزيده، والصلاة

والسلام على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد، فيقول الله تعالى: ﴿

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الاسراء : 85 }

و يقول الله عزوجل: {ولئن شكرتم لأزيدنكم}

اشكر المولى عزوجل حق شكره على هذه النعمة التي أنعمنا إياها لإتمام هذه الدراسة
و طلب العلم وعلى توفيقه لي وأحمده.

كما اشكر كل من ساعدني في إعداد هذه المذكرة على رأسهم الأستاذ المشرف:
خوضر رياض الذي قبل رعاية بحثي ولم يتوانى عن تقديم العون لي.

كما اتقدم بالشكر الجزيل لإدارة قسم الفلسفة و الأساتذة وإلى كل الأصدقاء
الأعزاء.

وإلى كل من علمنا حرفا من الطور الإبتدائي إلى الطور الجامعي إلى ما بعد التدرج.

وشكرا



إهداء

إلى روح والدي العزيز

. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته يارب .

وإلى التي سهرت على راحتي صغيرا ثم حرصت على مستقبلتي كبيرا.

إلى التي غمرتني بحبها مريرا.

إلى من جعل الله الجنة تحت قدميها

إلى أحب مخلوقة إلى قلبي.

إلى روحي والدي العزيزة وقرّة عيني حفظها الله و أطال الله في عمرها

على المجهودات المبذولة والدعم المقدم لي طيلة حياتي.

وإلى الإخوة والأخوات خاصة أبنائهم الكناكيت: عاصم ليليا،

سلطاني ريان عيسى و سامي يوسف ، جغام هاجر، محمد ضياء الدين

ودعاء، بتقة عيسى، وصال، محمد اياد، الياس وفادي.

وإلى رفيق دربي ح.ن

عائشة.بتقة



مقدمة



مقدمة:

إن هذا المفهوم الهام جداً والذي بحث فيه غالبية المفكرين قد شهد من خلاله الفكر الفلسفي الكثير من الإشكاليات الفلسفية، ومن بينها إشكالية العلية حيث تضع الفلسفة مبدأ العلية في مصاف القضايا الأساسية التي تسمى بالمبادئ، باعتبار أن مبدأ العلية من مبادئ العقل حيث يعد مبدأ العلية من أهم مسلمات البحث العلمي، هذا أن فكرة العلة لها موضع مركزي في العلوم كونها المنتجة للقوانين العلمية، حيث لولا هذا المبدأ ما كان بالإمكان الكشف عن الظواهر الطبيعية وقوانينها.

ولقد شكل مبدأ العلية التربة الخصبة لظهور العصر الحديث، وتحدد مهمته بتعليل الظواهر عن طريق تحديد علة كل حدث، فارتبط تفسير العلماء بالقوانين العلمية بالتفسير العلمي، الذي يفترض اطرادا بين أحداث الطبيعة يجعلها تسير على وتيرة واحدة لا تتغير، و يجري البحث في تفسير ظاهرة علمية من ظواهر الطبيعة، بتتب أسبابها الفاعلة الخاصة والعوامل التي سببت وجود الظاهرة، طبقا لإفترض مبدأ العلية. إذ يفترض في العلم وجود عوامل سببية تعمل على تشكيل الظاهرة، سواء تمكنا من الكشف عن هذه العوامل ام لم نتمكن. لهذا ليس هناك من العلماء من يفسر الظاهرة الجديدة على الأقل فيما يخص العديد من الظواهر بأنها تخلو من الأسباب بإطلاق، أو أن وجودها نابع من العدم.

فالعلة تعد مقولة فلسفية تدل على الروابط الضرورية بين الظواهر، التي تعتبر من بين المفاهيم الأساسية التي أقيم عليها العلم التجريبي، كما تعد أيضا واحدة من المقولات الأساسية للبحث العلمي التي تفضي دائما إلى إكتشاف السببية الأساسية.

ومن بين الفلاسفة الذين درسوا هذا المبدأ نجد كل من: جون لوك، جورج بركلي ودفيد هيوم، حيث يعتبر الفيلسوف التجريبي الأسكتلندي دفيد هيوم من بين الذين اهتموا بدراسة مبدأ العلية في الفلسفة الحديثة باعتبارها أحد الأركان الأساسية في الفكر الفلسفي الحديث، و التي لقيت اهتمام واسع لدى فلاسفة العصر الحديث، لأن مشكلة العلية لا بد من تحليلها ومعرفة ما إذا كان هناك رابطة بين السبب والنتيجة (العلة والمعلول)، ولعل هيوم تفسيره قائم على ملاحظته للعالم أو الواقع الخارجي، وكانت مناقشته لهذا المبدأ هو إثبات خطأ التصور السائد حول العلية.

و حسب مبادئ هيوم الفلسفية من الواضح أنه انطلاقاً من حالة خاصة لموضوعين أحدهم سبب والآخر نتيجة لا نستطيع استخلاص فكرة السببية أو أية فكرة تعبر عن ترابط ضروري أو عن قوة، ولكن بعد ملاحظة حالات

مفردة متعددة يكون فيها موضوعان مترابطين دائماً، يمكن أن ندرك ترابطاً بينهما ونبدأ باستنتاج أحدهم من الآخر، كما يوضح هيوم في بحثه هذا على تعددية الحالات المتشابهة.

وبهذا يمكن طرح الاشكالية التالية:

– هل مبدأ العلية عند دافيد هيوم قائم على الضرورة أم الإعتقاد السيكولوجي ؟

ومن أسباب اختيارنا للموضوع حب الإطلاع علي فكر دفيد هيوم و أهميته ومعرفة كيف كانت نظرة الفيلسوف لهذه المشكلة، و لمعالجة هذا الموضوع أعدنا خطة تتضمن ثلاث فصول:

الفصل الأول: تناولنا فيه العلية قبل دافيد هيوم و الذي يتضمن تطور المفهوم التاريخي للعية، حيث

أدرجنا تحت هذا الفصل ثلاث مباحث تناولنا فيها: العلية عند فلاسفة اليونان وكيف كان تصورهم للعية، العلية عند فلاسفة الاسلام وما هو مفهوم العلية ، العلية عند فلاسفة العصر الحديث.

حيث ركزنا على أهم مبادئها المعرفية من بداية ظهور فكرة العلة عند أرسطو مع الفلسفة اليونانية، ومع العصر الوسيط حيث خصصنا فلاسفة الاسلام وكيف كانت نظرتهم وتصورهم لهذا المبدأ عند كل من الغزالي، ابن رشد، الفرابي، وكذا ابن سينا ، إلى أن وصلنا إلى العصر الحديث من خلال عرض تصور الاتجاه العقلي والتجريبي باعتبار أن هذا العصر يتميز بالنقد والتحليل، وكيف كانت وجهة نظرهم حول هذا ونجد الفيلسوف الفرنسي ديكارت.

أما الفصل الثاني: فقد أفردناه تحت عنوان في مفهوم العلية عند دافيد هيوم، حيث أدرجنا تحت هذا

الفصل مبحثين تناولنا فيهما: نقد الأفكار الفطرية عند دفيد هيوم والهجوم العنيف عليها في المقابل أنه أقر بوجود أفكار صادرة عن التجربة أي أفكار من قبل الواقع الخارجي، وكذلك مفهومه حول العلية ومن أين هي مستسقاء، لأن هيوم بهذا يدافع عن المبادئ التجريبية

وفي الفصل الثالث: تناولنا فيه موقف دفيد هيوم من العلية، حيث أدرجنا تحت هذا الفصل ثلاث

مباحث تناولنا فيها: نقد هيوم للعية حيث اتضح لنا فكرة السبب من حيث العقل وكذا التجربة، وبهذا فهو يرفض أي فكرة خارجة عن التجربة، ومن خلال هذا يتضح انكاره لمبدأ العلية، أما المشكلة المنطقية للاستقراء تكمن في ماهو الدليل الذي يستدل به للوصول إلى النتائج، وصولاً في الاخير للعادة وتداعي المعاني في تفسير الظواهر عند هيوم وكيف فسرها.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة والتي رأينا أنه مناسب لهذه الدراسة هو المنهج التحليلي، إذ ألزمتنا أنفسنا على تحليل أفكار الفيلسوف التجريبي دفيد هيوم و مبادئه، وذلك من خلال المصادر الأصلية لدفيد هيوم. وهدفنا من هذا البحث هو كشف عن موقف هيوم من هذا المبدأ من خلال النصوص الأصلية له.

ومن أهم المصادر المعتمدة في بحثنا هذا كتب دفيد هيوم " مبحث في الفاهمة البشري " "تحقيق في الذهن البشري" وكذا كتابه " A treatise of Human Nature " أما فيما يخص المراجع كثيرة منها الأسس المنطقية للإستقراء "الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم"... أما فيما يتعلق في الصعوبات التي واجهتنا طيلة دراستنا لهذا البحث تكمن في وجود مصادر باللغات الاجنبية وصعوبة ترجمتها بأسلوب الذي أراداه الفيلسوف وعبر عنه، كذا صعوبة تحليل بعض المفاهيم التي واجهتنا، وكذا كثرة المراجع مع صعوبة إستيعاب المعلومات.

لنصل في نهاية البحث الى خاتمة.

أَلْفَصِلُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول: العلية قبل دافيد هيوم

المبحث الأول: العلية عند فلاسفة اليونان

المبحث الثاني: العلية عند فلاسفة الإسلام

المبحث الثالث: العلية عند فلاسفة العصر الحديث

الفصل الأول: العلية قبل دافيد هيوم.

منذ بداية الفكر الفلسفي، بدت فكرة العلية متعلقة بالطموح الكبير التي تبديه همة الفكر نحو جعل المسائل الكلية من الأصل والتكوين وضرورة الكائن أمورا معقولة ومدركة من طرف الإنسان، وظهر البحث العقلي عن العلة الأصلية والتطلع المعرفي نحو العلة الذهنية أمرا متأصلا في الطبيعة البشرية ومنغرسا في الروح التائقة نحو المطلق، بيد أن الإنسان لم يدرك مباشرة عن طريق الحواس والذهن سوى جزء بسيط من الواقع، وبالتالي كان البحث بواسطة الأسباب منذ البدء وسيلة محبذة لتجاوز هذه المحدودية وبلورة إستراتيجية معرفية وتقنية تقدر على سير الكون في مجموعة.

هذا التوجه لم يكن عن طريق إبداع الأساطير الكونية والحكايات الكبرى التي تظهر القدرات الخارقة للبشر ونماذج خرافية من السيطرة على المكان والتحوال في الزمان، وإنما من خلال اختراع نظريات علمية وتصورات فلسفية تخضع لقوانين ثابتة وان الوقائع تنتظم وفق نظام معين، وأن انبثاق وتتابع الظواهر يشبه انبثاق وترابط الأفعال الإرادية للبشر.

وإن فهم مصطلح العلية ودوره في نظرية المعرفة وفي مستوى سيطرة الإنسان على الطبيعة وغزوه الفضاء وتفجير الذرة والتحكم في الخلايا المنتجة للحياة تقصي جنيالوجي لوضعها السابق في ركام الميتافيزيقا، واستعمالها المكثف من قبل العلماء، ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

– ماهو تصور الفلاسفة في كل عصر عن مبدأ العلية قبل دافيد هيوم؟

المبحث الأول: العلية عند فلاسفة اليونان

لقد أخذت نظرية العلية حيزا كبيرا لدى فلاسفة الفكر اليوناني، حيث لقيت اهتماما واسعا خاصة لدى أرسطو، حيث يعتبر من بين الفلاسفة الأوائل الذين اهتموا بهذا المبدأ، فنظرية العلية من هذا العصر كان الهدف منها هو معرفة علة وجود هذا الكون، لأنها تعتبر العلاقة التي تربط بين الأشياء والأحداث.

لعل أرسطو كان اهتمامه بالعلية راجع إلى الأصول التي قام عليها المنطق الأرسطي، حيث كانت الأفكار الميتافيزيقية يتبنونها لأرسطو، حيث كانوا يعتبرون كل شيء في العالم هو متعلق عن الأشياء الأخرى، وان كل شيء يمكن أن يكون علامة على شيء، كما أن السبب في الفكر اليوناني يلعب دورا هاما في القياس، بما أن العلاقة بين السبب والنتيجة هي نفسها الموجودة بين الغاية والوسيلة في الفعل الإرادي و القائمة بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل في الميتافيزيقيا، إذ أن الفاعل هو الذي يدفع بالشيء من القوة إلى الفعل، ولكن الفعل ما هو إلا السبب الصوري، وبهذا يمكن طرح التساؤل التالي؟

- ماهو تصور مبدأ العلية عند فلاسفة اليونان؟

يعتبر أرسطو أول من اهتم بمبدأ العلية في الفكر اليوناني حيث كانت نظرتة إليها أوسع وفي حديثه عن العلة يقول " لسنا نعرف الحق دون أن نعرف علته وكل واحد من الأوائل فهو خاصة علة لما عليه سائر الأشياء...وان علل الأشياء الموجودة ليست بلا نهاية لا من طريق الاستقامة ولا من طريق النوع، أي أن تكون أنواع العلل أكثر من أن تعد إلى غير نهاية"¹.

يتضح لنا من خلال هذا أن وجود الأشياء مرتبط بالعلل حيث أن ما يعنيه الإنسان بعلة شيء من الأشياء هو علته الفاعلية.

حيث تعتبر " العلة هي التي تولد شيئا آخر بنشاط حقيقي"² وهنا نستنتج أن أرسطو يريد أن يوضح أن للعلل أنواع.

يقول أرسطو عن المتقدم والمتأخر في الأشياء " ذلك أن الأشياء المتوسطة وهي الأشياء التي فيها متقدم ومتأخر يجب ضرورة أن يكون المتقدم هو العلة لما بعده... وذلك أن الأخير ليس هو علتها من قبل... وكذلك المتوسط ليس هو علتها من قبل أنه إنما هو علة لواحد فقط ولا فرق بين أن يكون متوسط واحد وبين أن تكون

¹ أرسطو طاليس: ما بعد الطبيعة، دار ذو الفقار، اللاذقية، دمشق، ط1، 2008، ص6.

² وليام جيمس: بعض المشكلات الفلسفية، ت د. محمد فتحي الشنيطي، مصر، دط، دس، ص 160.

المتوسطات أكثر... فيجب إن لم يكن شيء من الأشياء إلا يكون بالجملة علة "1.

نلاحظ من هذا على أن الأشياء تتكون بما يسمى **بالعلة والمعلول**، هذا أن المعلول يوجد من قبل على نحو ما في العلة، وانه ليس ثمة شيء يمكن أن يأتي إلى الوجود دون علة، كما أن العلة ليست من ذات الأشياء وإنما تكون متباينة للأشياء.

يقول **أرسطو عن مفهوم العلة**: " ... فما هي إذا العلة في كل هذه العناصر؟ إنها ليست في الحق لا الأرض ولا النار، وليست كذلك العشق والتنافر لان احدهما ليس علة... تلك العلة إنما هي أصل لكل شيء"2.

يلاحظ من هذا أن **أرسطو يقصد بالعلة** هي أصل كل شيء هو المحرك الأول الذي يطلق عليه وهو الله، لان العلة الأولى ليست في الموجودات بل تكمن في من الذي اوجد هذه الموجودات، وهو الأصل (المحرك الأول أو العلة الأولى).

يعتبر أن سبب أي شيء يتمثل في **أربعة مبادئ أو ما يدعوها أرسطو بالعلل أو الأسباب الأربعة** التي تكمن في الصورة والمادة والتي تدخل في تركيب الموجود وصيرورته التي لا ينفك الجوهر الطبيعي عنها وهي " المادة أو ما منه الشيء، الصورة أو ماهية الشيء، الفاعل أو مبدأ الحركة والسكون أو ما به يصير الشيء به هو الغاية أو ما من اجله الشيء، وهذه العوامل الأربعة هي ما يدعوه أرسطو بالعلل "3.

يمكن القول أن **العلل عند أرسطو** مكملة بعضها البعض، فلا يوجد الشيء إلا بوجود غيره، هذا أن الصورة كلية، إما المادة هي مبدأ الوجود أو التفرد في الأشياء المركبة، وبهذا غلق الفاعلية التي تكمن في الحركة وصولاً إلى الهدف (الغاية).

1. أرسطو طاليس: ما بعد الطبيعة، ص 7.

2. أرسطو طاليس: الكون والفساد، نقله . أحمد لطفي السيد، دار القومية، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 191.

3. ماجد فخري: أرسطو طاليس "المعلم الأول"، دار المكتبة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، دط، 1958، ص 85.

يقول أرسطو " أن الإنسان يتحرك من الهواء والهواء يتحرك من الشمس، والشمس تتحرك من الغلبة العداوية ولا يكون لذلك نهاية... فمثلا المشي لسبب الصحة والصحة لسبب السعادة والسعادة لسبب شيء آخر غيره... وكذلك يجري الأمر فيما هو الشيء أي الذات"¹.

يلاحظ من هذا أن أرسطو فرق بين أربع أنواع من العلل والتي تكمن في العلة المادية، والصورية، الغائية والفاعلية، وهذا من خلال ضربه لنا أمثلة توضح تلك العلل ومسارها إلى أن تصل الغاية المنشودة، ويرى كذلك بأن الفلسفة هي تفسير الأشياء بعقلها.

ويمكن القول أيضا على أن أهم علة عند أرسطو هي العلة الصورية، وعليه " فالنظرية الأرسطية في العلل جاءت من ملاحظة الظواهر الخارجية خاصة الأفعال الإنسانية والفنية منها بالذات"².

إن العلة في نظر أرسطو تشمل ما يسمى بالعلة والحكمة، حيث قال أرسطو في هذا " إن للعلة أربعة أنواع: العلة المادية، والعلة المحركة، والعلة الصورية، والعلة الغائية، وليست هذه العلل تتعاقب... ولكنها جميعا تعمل معا في كل حالة من حالات الوجود"³.

ونلاحظ من هذا على أن المادة لشيء هي التي يتكون منها الشيء كالبرنز للتمثال، أما العلة المحركة يعني بها القوة التي عملت على تغيير الشيء، ونعني بالحركة التحول والتغير، أما العلة الصورية بأنها روح الشيء، وأخيرا الغرض أو المقصد الذي تتجه الحركة لإخراجه، والتغير يريد أرسطو به التحديد في هذا العالم.

فالحديث عن تصور أرسطو للعلة يقضي من خلال " أن تصور أرسطو للعلة يتضمن الشئيين اللذين نطلق عليهما العلل والأسباب، أن ما هو ضروري سواء كان حقائق أو مبادئ، سواء كان عللا أو أسبابا لفهم وجود شيء ما فهما كاملا"⁴.

¹ أرسطو طاليس: ما بعد الطبيعة، ص 7.

² إبراهيم مصطفى إبراهيم: منطق الاستقراء " المنطق الحديث"، سنة المعارف، الإسكندرية، دط، 1999، ص 117.

³ أحمد أمين و زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ، 1935، ص 224.

⁴ وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ت. مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، دط، 1984، ص 222.

يمكننا القول على أن تصور أرسطو للعلية مرتبط بالوجود، حيث يعتبر أن العلة هي مجرد ميكانيزما سيتخلص منها العقل نتائجه، هذا مثلا الموت ينجم عن حادثه ... وعليه يجب أن تكون العلل مماثلة.

يقول أرسطو " فكل ما نشأ عن طريق المقدره البشرية وأنا أتكلم عن الأشياء التي تكون العلة فيها هي المقدره في ذاتها لا بطريقة عرضية فحسب، فإن الشفاء هو بالتأكيد علة الصحة قبل أن يكون علة المرض، وفن البناء هو علة تشييد البيت لا علة الهدم ... وهذه هي غايته وأفضل شيء " ¹.

المقصود من هذا هو توضيح طبيعة التفكير الغائي عند أرسطو فالغاية دائما هي الهدف الأخير وعلى تحقيقها يقوم كل كمال وترق في مستويات الوجود.

وفي حديث أرسطو عن علة الحركة يقول " بأن علة الحركة بتوسط الأعضاء توجد عند تلاقي البداية والنهائية، كما هو الحال مثلا في المفصل: فهناك المحذب والمقعر، الأول نهاية، والثاني مبدأ " ².

المقصود من هذا أن الحركة تكمن دائما لتحقيق غاية أو هدف، ويصاحبها إما تحيل وإما نزوغ، فالنباتات مثلا نفسها قادرة على الحركة وذلك من اجل التجديد والتغير والتحول، وذلك من اجل تحقيق غاية ما.

أما العلة الفاعلية المرتبطة بالعقل باعتبار أن العلة هي من مبادئ العقل " هكذا سيتوقنا البرهان ضرورة إلى القول بأن كل شيء يوجد من اجل العقل، وان فاعلية العقل هي التفكير، والتفكير يقوم على النظر في موضوعات الفكر، على نحو ما تكون فاعلية عضو الإبصار هي رؤية المرئيات " ³.

من الملاحظ في هذا أن الفاعلية تكمن في حركة العقل التي تتمثل في التفكير وهذا من اجل السعي وراء الوصول إلى الشيء المنشود، كما أن أرسطو في هذا قد ربط العلة الفاعلية ومدى تأثيرها على العقل وذلك من اجل تكوين نفس عاقلة.

¹ أرسطو: دعوة للفلسفة (بروتربليتيقوس)، ت د. عبد الغفار مكاوي، دار المطابع الهيئة المصرية، دط، 1987، ص 34.

² أرسطو طاليس: كتاب النفس، نقله وترجمه د. أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1949، ص 126.

³ أرسطو: دعوة للفلسفة (بروتربليتيقوس)، ص 38.

يقول أرسطو عن **المحرك الأول** الذي يعتبر خارج عن الجسم " إن المحرك الأول ليس الذي هو كذلك من قبل انه ما من أجله، بل هو الذي هو محرك أول من قبل أن منه مبدأ الحركة، هو مع المتحرك عنه " ¹.

بهذا يتضح أن المحرك الأول وهذا ما سيسميه أرسطو انه بالنظر في الحركة الموجودة في هذا الكون يؤدي إلى تصور محرك أول لهذه الحركة، كما وضع أرسطو فكرة الغائية على أنها مظهرا ودليلا على العناية الإلهية، واعتبر أن المحرك الأول ليس له متوسط يتوسطه.

تعتبر أن **العلة الغائية** هي العلة المحركة التي تطلق عليها المحرك الأول للعالم حيث يتضح من خلال " هذه الغاية، وان شئت فعل الذروة العليا للموجودات، وان شئت فعل الصورة المجردة، التي سيسميتها أرسطو " الله"، ويقول انه هو الموجود حقا لأنه له أتم صورة " ².

وبذلك يعني أن الله إذا كان فكرة وإذا كان هو العلة الغائية وهذا كله يكمن في أن يكون هو غاية الغايات لان الله هو مصدر الحركة، ولو كان متحركا لتحرك إلى غاية.

وقولنا أيضا انه "محرك الأول للعالم" نقصد بهذا انه يجذبه إلى غايته، هذا أن العالم لا أول له في الزمن، وإنما سبقه الله، وعليه فالله هو صورة الصورة، فكرة الفكرة، هو المفكر والمفكر فيه... ونستنتج من خلال هذا أن أرسطو اعتبر الطبيعة كلها تحولات متتابعة من " المادة" إلى " الصورة"، والمادة عنده ما هي إلا مبدأ الانفعال، ونسب كل فعل إلى الصورة التي ارجع إليها بداية الحركة وغايتها، والمصدر الأول لكل حركة هو الله " المحرك الأول الذي لا يتحرك".

¹.أرسطو طاليس: **الطبيعة**، ت. إسحاق بن حنين و عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، دس، ج1، ص 746.

².أحمد أمين و زكي نجيب محمود، المرجع السابق، ص 231.

المبحث الثاني: العلية عند فلاسفة الإسلام

إن مفهوم السببية في التصور الإسلامي للوجود يستند إلى مفهوم توحيد الربوبية، فإثبات السببية هو جزء من العقيدة الإسلامية، حيث نظر الإسلاميون إلى مبدأ العلية في هذا التابع بأساليب مختلفة حسب طبيعة الموضوعات التي عالجوها، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن علماء ومفكري الإسلام عاملو العلية في هذا الجانب باعتبارها العلاقة بين الأشياء لا العلية بمعناها العقلي، أي المبدأ .

ومن هنا أدرك بعض مفكري العرب اختلاف مبدأ السببية عن القواعد المنطقية الضرورية، وبهذا ميز الإسلاميون العلية باعتبارها مبدأ عقليا، ذا ضرورة منطقية، وبين العلية بمفهومها التجريبي الذي يعبر عن العلاقات السببية بين الأشياء وان لهذه العلاقة طبيعتها وخصائصها حسب طبيعة الظاهرة المدروسة ولقد تدبر الإسلاميون هذه العلاقة بشكل خاص وعبروا عن مفهومها بطريقة تنسجم مع الواقع الموضوعي لهذه العلاقة.

ولقد انقسم الفلاسفة الإسلام في مبحث العلية إلى انه هناك من يرى أن العلة وصف ذاتي، وهناك من يرى بأن العلة وصف الموجبة للحكم يجعل الشارع.

ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

— فيما يتمثل مفهوم العلية في التصور الإسلامي لدى فلاسفة الإسلام؟

في حديث ابن رشد عن العلة المختلفة التي تأخذ حدودا وسطى يقول "الأسباب أربعة" الذي على طريق الصورة، والسبب الذي على طريق الهيولي، هو الذي يوجد من اجل الصورة، والسبب الذي على طريق المحرك القريب والفاعل، والسبب الذي على طريق غاية"¹.

المعنى من هذا على أن الشيء إذا وجد لا بد من وجوده يكمن في علة أربعة، والتي هي الصورة التي رسخت في الذهن "أي الشكل"، والمادة التي توجد من اجل الشكل وكذا الفاعل أي الذي قام بالعملية أي المحرك، وأخيرا الغاية المهدف المراد الوصول إليه، وعليه فالفاعل والغاية سبقهما المادة والصورة. يلاحظ أيضا من خلال هذا على

¹ ابن رشد: شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان، ت د. عبد الرحمن بدوي، الكويت، ط1، 1984، ص 135.

أن العلة في نظر ابن رشد مستسقة من الصورة، هذا أن الصورة هي علة وجود الهيولي، و أن الهيولي في ذاته لا صورة له، لذا يحتاج إلى الصورة، فالصورة هي المبدأ الذي يعين الهيولي ويعطيها ماهية خاصة، وكذلك علة الحركة " الفاعل " التي تكمن في التغيير من اجل الوصول إلى الهدف (الغاية).

ويواصل القول " جميع هذه الأسباب تؤخذ حدودا وسطا في البراهين، ذلك أن الحد الأوسط هو بمنزلة الهيولي للقياس "¹. ويعني هذا أن العلل تعرف من خلال ارتباطها بالبرهان الذي تؤخذ حدا وسطا المتمثل في الهيولي.

وفي تفسير ابن رشد عن العلل الأربعة يقول " إما أخذ السبب على طريق الصورة حدا أوسط، فمثل ما يقال: لم صارت زاوية المثلث المعمول على القطر في نصف الدائرة قائمة؟ فيقال: لأنها نصف الزاوية التي على المركز والزاوية ... والأخذ بالسبب على طريق الهيولي حدا أوسط يقال: لم يفسد الحيوان؟ فيقال: لأنه مركب من أضرار "².

نعني بهذا على أن كل علة سواء التي عن طريق الهيولي أو عن طريق الصورة لها فعل تقوم به، إلا أن الصورة تعتبر المحرك للهيولي. وبهذا يمكن القول على أن الهيولي مرتبط بالصورة ارتباطا وثيقا.

يقول ابن رشد عن المحرك الفاعل والغاية " إن العلل التي على طريق الفاعل هي الأمور المتقدمة على المعلولات في الوجود بالزمان، وكذلك تكون الأوساط فيها أمورا متقدمة الوجود بالزمان على النتائج، إما السبب الذي على الطريق الغاية فهو متأخر بالزمان في الوجود عن النتيجة "³.

نعني بهذا أن العلل المحركة علل من حيث هي متقدمة في الوجود على معلولاتها، إما العلة الغائية من حيث الوجود تكون متأخرة، وعليه فسبب الغاية شيء لزم من الضرورة، هذا كل الأشياء الموجودة لها غاية أو هي شروط لأشياء ذات غاية فهو يؤكد على أن ما نتوصل إليه فهو منفعة.

¹ ابن رشد: شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان، ص 135.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه، ص 136.

يقول ابن رشد " سبب تلك الغاية شيء لزم من الضرورة، والضرورة تقال على ضربين: من قبل صورة الموجود، مثل حركة الحجر إلى أسفل، وصعود النار إلى فوق، أو الذي من قبل الهيولي، مثل أن الكائن لزمه الضرورة إن كان فاسدا"¹.

المقصود من هذا أن ابن رشد في هذا يخالف قول أرسطو بالضرورة اللازمة من قبل المخلوق، هذا يعني أن الضرورة الطبيعية مفادها تحقيق غاية أو قصد.

يوصل ابن رشد قوله " والأمر التي تحدث بالروية والفكر، وكذلك الحادثة عن الطبيعة، بعضها بالاتفاق والبحث، وبعضها ليس بالاتفاق، وهي التي سببها الصناعة أو الطبيعة إن لم يكن حدوثها مقصودا عنها بل الغرض، فإن الصناعة والطبيعة كليهما إنما تفعلان لمكان غاية من الغايات، لا شيء من الأشياء ولذلك كان حدوثه أقليا، ولم يكن هذا السبب معدودا في الأسباب المطلوبة، ولا أستعمل حدا أوسطا في البراهين"².

لكن يعني هذا على أن القول **بالصناعة والطبيعة** والأخذ بهما يقودنا إلى تحقيق غاية من الغايات، هذا أن البحث والاتفاق فليس ما يحدثه هو لمكان غاية ولا لشيء، هذا أن فعل الصناعة والطبيعة عند أرسطو يعتبر حقيقة، أما عند الأشاعرة فهو مجاز.

وفي حديث ابن رشد عن وجود العلة مع المعلول بصفة تتابع يقول " فأما العلة التي لا توجد مع معلولاتها، وهي الفاعل الهيولي، فليس هذه حالها مع معلولاتها، أعني أن كانت موجودة فمعلولاتها موجودة، وان كانت مزمنة إن توجد فمعلولاتها مزمنة أن توجد"³.

وبذلك يعني إن العلة والمعلول هو عبارة عن مجموع الطرد العكسي، أي أن يدور المعلول مع علته وجودا وعدمًا، فإذا وجد المعلول وجد الأول، وليس إذا وجد الأول يلزم أن يوجد الآخر فالجمود مثلا موجود بالقوة وفي الزمان المستقبل، هكذا حال المعلول مع هذه العلة.

¹ ابن رشد: شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان، ص 136-137.

² المرجع نفسه، ص 137.

³ المرجع نفسه، ص 138.

وعن جواز الانعكاس بين العلة و معلولها في بعض البراهين يقول ابن رشد " إن كانت الأرض مبتلة فيكون عندها بخار، وإن كان بخار ، فسيكون سحاب، وإن كان سحاب، فسيكون مطر وإن كان مطر، فقد تبطل الأرض، فقد يجب أن كانت الأرض مبتلة أن تكون الأرض مبتلة وإن كان بخار أن يكون بخار "1.

وبذلك يعني أن عكس القياس بأن تكون العلة معلولا، وأن يكون المعلول علة، كما يمكن القول بجواز الانعكاس بين العلة والمعلول في بعض البراهين يؤدي إلى القول بجواز أن يكون البرهان على سبيل الدور، أي أن العلة تأخذ دور المعلول والعكس، وهذا كله يمكن القول بالبرهان الجزئي، وأن الابتلال الأول غير الثاني.

وفي تصور ابن رشد عن العلة الأولى والتي سماها بالدليل الأول يقول " يستحيل صدور حادث قديم مطلقا، لأننا إذا فرضنا القديم، ولم يصدر منه العالم مثلا، فإنما يصدر لأنه لم يكن للوجود مرجع، بل كان وجود العالم ممكنا عنه إمكانا صرفا، فإذا حدث بعد ذلك، إما أن يتجدد مرجع، أو لم يتجدد "2.

المقصود من هذا أنه إذا افترضنا استحالة صدور حادث عن القديم (الله)، فهذا يؤكد على أن العالم لم يوجد معه بل حدث بعد ذلك، وعليه المعنى من هذا على أن العالم حدث بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه، فالإرادة هي سبب للفعل لا ذات الفعل، هذا أن كل ما يحدث من صنع الله.

وعن الحديث عن العقل البشري الذي صممه الله عز وجل وفق أنظمة الكون لا يفهم شيئا إلا بالسبب حيث يقول الله عز وجل " ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (83) إن مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سببا (84) فأتبع سببا(85) "3.

المقصود من هذا على أن ذو القرنين رجل مكنه الله و عليه فإن الأقوياء ليسوا أقوياء بذواتهم، وإنما أقوياء بتمكين الله عز وجل لهم وهذا فضل من الله عز وجل ، فإذا شَعَرَ الإنسان بقوة مادية أو معنوية فهذا من باب التمكين، وبهذا يقضي تصميم الله عز وجل للحياة وهذا التصميم بأن لكل شيء سبباً، فإذا أردت أن تصل إلى

1. ابن رشد: شرح البرهان لأرسطو و تلخيص البرهان، ص 139.

2. ابن رشد: تهافت التهافت، ت د. سليمان دنيا، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة ، ط3، دس، ص ص 60-61

3. القرآن الكريم: سورة الكهف، الآية " 84،85،83"، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، السعودية، ص 303.

شيء ما، فلا بد من اتخاذ الأسباب، ولا بد أن تعطي أكثر من أن تأخذ ، فهناك سبب لكل شيء تريده في الحياة ، فإذا كنت عبداً واعياً عليك أن تأخذ بالأسباب.

يقول الغزالي في حديثه عن العلة " لا يجوز أن تكون الصورة وحدها سبباً لوجود المادة، إذ لو كان كذلك للزم عدم وجود المادة بعدم الصورة، كما لا يجوز أن لا يكون للصورة مدخل في وجود الهيولي إذ لو لم يكن لها مدخل لبقيت الهيولي وحدها ببقاء علتها مع عدم الصورة... " ¹.

هذا يعني أن ارتباط الصورة بالمادة ضرورة حتمية، لأن وجود المادة راجع إلى وجود الصورة، لأن التمييز بين الصورة والهيولي يعتبر تمييز عقلي لا غير، وباجتماعهما تتكون الأشياء.

يعرف الغزالي السببية من خلال قوله: " العلة هي العلامة وإنما العلامة جملة الأوصاف والإضافات ... فمسألة تعليل الحكم بعلتين، العلة الشرعية والعلة العقلية " ².

الملاحظ من هذا على أن إثبات العلة باعتبارها علامة قائمة على الدليل العقلي من جهة، وكذا الدليل الشرعي من جهة ثابتة، حيث يستوفي في ذلك العلة في مجال الأمر، وفي مجال الخلق.

يقول في حديثه على أن السببية ليست خارجة عن الذهن " إن هذه الحوادث تفيض من مبادئ الحوادث، ولكن الاستعداد لقبول الصور يحصل بهذه الأسباب المشاهدة الحاضرة... منها باللزوم والطبع... " ³.

المعنى من هذا على أن العلة هي عبارة عما ترسخ في الأذهان من تكرار المشاهدات لأمر متعاقبة لا تأثير بينهما، كما أن الوجود الذهني ليس علة في الوجود الخارجي.

يتحدث الغزالي على أن الله فاعل العالم وصانعه فيقول " أن الله تعالى هو صانع العالم وفاعله... وأن العالم قديم والفعل هو الحادث، وأن الله تعالى واحد عندهم من كل وجه، والواحد لا يصدر منه عندهم إلا واحد من

¹ الإمام أبي حامد الغزالي: مقاصد الفلاسفة، ت. محمود بيجو، دمشق، ط 1، 2000، ص 157.

² الغزالي: المستصفى في علم الأصول، ت. محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993، ج 2، ص 336.

³ الغزالي: تهافت الفلاسفة، ت. د. سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط 6، دس، ص 242.

كل وجه، والعالم مركب "1.

يلاحظ من خلال هذا على أن الدليل لوجود هذا العالم هو المحرك الأول أو العلة الأولى له وهو الله، هذا أن الله هو الفاعل لهذا العالم، هذا أن إرادة الله في ذاته وليست خارجة عنه.

وعن أفراد السببية وإفراد مسببها يقول الغزالي " فلنرى من هذا أن لا يكون في العالم شيء واحد مركب من أفراد، بل تكون الموجودات كلها أحادا، وكل واحد معلول لواحد آخر فوقه، وعلّة آخر تحته، إلى أن ينتمي إلى معلول لا معلول له... الإنسان مركب من جسم ونفس، وليس وجود أحدها من الآخر... وهو إبطال به قول الفلاسفة حيث يشبتون أن العالم لا يصدر من الواحد إلا واحد، أو علة مركبة، إلى أن يلتقي - بالضرورة - مركب بسيط، وفي الأخير بسيط "2.

المقصود من هذا في رأي الغزالي أن الله هو خالق هذا العالم، باعتبار أن الله واحد أحد لا يوجد غيره، كما هو ليس مركب، لأن الله هو العلة والمعلول، إلا أن الفلاسفة أنكروا هذا بوجود علة تركيبية لهذا العالم.

ومما تقام عليه مذهبهم في قدم العالم وكذا في فكرة أن تكون سابقة لمعلولها يقول الغزالي " اختلفت الفلاسفة في قدم العالم، أنه لم يزل موجودا مع الله تعالى، ومعلولاته، و مساوقا له، و مساوقة النور للشمس، وأن تقدم الباري عليه، كتقدم العلة مع المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة، لا بالزمان "3.

يجل هذا على أن السببية ينبغي أن تكون سابقة لمسببها ، كما أن الفعل وجوده يكون فاعلا، وبهذا ثبت وجود السببية بمعنى الفاعل كما أنكروا الفلاسفة، كما يقول الغزالي إن العالم خلق من غير الواحد أو العلة الأولى.

وفي حديثه عن قياس العلة وقياس الدلالة يقول الغزالي " ... قياس الدلالة أن يستدل بانتقاء الحكم عن الشيء على انتقائه عن مثله... إما قياس العلة فلا يجري هذا أن الصلاة السادسة وصوم شوال انتقى وجوبهما

1. الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص 134.

2. المرجع نفسه، ص 144.

3. المرجع نفسه، ص 88.

لأنه لا موجب لهما... فحدوث العالم له سبب وهو إرادة الصانع"¹.

المقصود من هذا إن الله هو الميسر والخالق لهذا العالم دون سواه، كما ميز بين القياس عن طريق الدلالة، والقياس عن طريق العلة وفي رأيه أن العالم لا يسير على نمط واحد، وإنما إرادة الله تستطيع تحويل ما فيه.

وفيما يتعلق عن الأسباب والمسببات يقول الغزالي " الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا، وبين ما يعتقد مسببا، ليس ضروريا عندنا... فليس من ضرورة وجود أحدهما، وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما، عدم الآخر... "².

الملاحظ من هذا أن هذا الاقتران ليس ضرورة من الضرورات الدائمة، و أن إثباتنا لإحدى الحادثتين لا يحتم إثباتنا للأخرى، ولا يحتم نفيها نفي الأخرى.

ثم يواصل الغزالي في رده على القائلين بمبدأ السببية فيقول " ... وليس لهم دليل، إلا مشاهدة حصول الاحتراق منذ ملاقة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها، ولا تدل على الحصول بها، وأنه لا علة له سواها"³.

المعنى من هذا أن الاحتراق لا يدل على أنه قد حصل بالنار، بل يدل على حصوله عند ملاقة النار، أي مع النار.

يقول الغزالي عن الأسباب إنها موجودة في الماضي إلى غير نهاية". ثبت تقدير أن هذه الموجودات لها علة، ولعلتها علة ... وهكذا إلى غير نهاية، وقولهم: أنه يستحيل إثبات علل لا نهاية لها... والعلة غايتها أن يقال: إنها قبل المعلول بالطبع وأيضا إنها فوق المعلول بالذات لا بالمكان، فإذا لم يستحيل في " القبل " الذات الطبيعي"⁴.

¹ الغزالي: المستصفى في علم الأصول (2)، ص 329.

² الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص 239.

³ المرجع نفسه، ص 240.

⁴ المرجع نفسه، ص ص 156-157.

المقصود من هذا على أن وجود المسبب له سبب أوجده، أي ماضي، ولولا هذا السابق أو الماضي لما كان هناك مسبب، لان الحوادث التي لا أول لها هي حوادث لا نهاية لها، كما أن الزمان السابق له آخر وهو الآن الراهن ولا أول له، وعليه فالأسباب والمسببات في سلسلتها تنتهي إلى حركات جزئية، فإن كل ما يحدث فحدوثه واجب عن علته.

في الحديث عن الفصل في موضوع المنطق وعلاقته بالعلة يقول ابن سينا " ليس يمكن أن ينتقل الذهن من معنى واحد مفرد إلى تصديق شيء، فإن ذلك المعنى ليس حكم وجوده وعدمه حكما واقعا... لأن موقع التصديق هو علة التصديق، وليس يجوز أن يكون شيء علة لشيء في حالتي عدمه و وجوده"¹.

نعني من خلال هذا أن فهم لشيء ما يقتضي فهمه من مجموعة أشياء لها معان مؤلفة، هذا هو حال المنطق ففهمه مرتبط على المحمولات والموضوعات والكليات والجزئيات.

وعن الفصل في المشاركات يقول ابن سينا " والمشاركة الثالثة إن رفعها علة ما تحتها من الأنواع، فإنه إذا رفعت الحيوانية والنطق ارتفع الإنسان والفرس، وهذه المشاركة تابعة للمشاركة وهي الأصل، وهي أن كل واحد منهما جزء ماهية النوع ومقوم له، وهذا هو الأصل وذلك الفرع"².

يعني هذا أن العلة لها ما هو فرعي، وما هو أصلي، لأن كلاهما في علاقة تسلسلية، أي وجود الأصل يفترض وجود الفرع، وهذا ما يحدده ابن سينا في هذه المشاركة بين الفصل والنوع وعلاقتهما بالعلة.

وعن القول في المادة والصورة فيما يتعلق بالعلة يقول الفارابي " كل واحد من هذه قوامه من شيئين: احدهما منزلته منزلة خشب السرير، و الآخر منزلته منزلة حلقة السرير، فما منزلته الخشب هو المادة و الهولي، وما منزلته خلقتة فهو الصورة والهيئة، فالمادة موضوعة ليكون بها قوام الصورة، والصورة لا يمكن أن يكون لها قوام ووجود يغير المادة، فالمادة وجودها لأجل الصورة"³.

¹ ابن سينا: الشفاء، ت. الأب قنواي، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1952، ص 21.

² المرجع نفسه، ص 92.

³ أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ت د. البير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص 64.

المعنى من هذا أن وجود الصورة سبب في وجود المادة، لأن لو لم تكن الصورة موجودة لما كانت المادة، فالصورة وجودها من أجل أن يحصل الجوهر المتجسم جوهرًا بالفعل، لأن وجود أي شيء بالمادة دون الصورة فيكون وجوده وجود بالقوة لا بالفعل.

وعن القول في الأسباب التي عنها تحدث الصورة الأولى والمادة الأولى يقول الفارابي " فيلزم عن الطبيعة المشتركة التي لها، وجود المادة الأولى المشتركة لكن ما تحتها، وعن اختلاف جواهرها، وجود أجسام كثيرة مختلفة الجواهر، وعن تضاد نسبها وإضافتها، وجود الصور المتضادة، وعن تبدل متضادات النسب عليها وتعاقبها... وأن ما يحدث عن أصناف تلك الامتزاجات المختلفة أنواع كثيرة من الأجسام... بل إنما يحدث في وقت ما من غير أن تكون قد كانت فيما سلف"¹.

الملاحظ من هذا أن خلق ما يسمى بالصورة والمادة له أسباب لأن كل ما هو موجود فله سبب لوجوده، فهناك ما يوجد بالتضاد وهناك ما يوجد بالاختلاف، وكذا ما يوجد بالتعاقب.

وعن القوة الناطقة وما سبب ذلك يقول الفارابي " ... بل يحتاج أن تصير عقلا بالفعل إلى شيء آخر ينقلها من القوة إلى الفعل، وإنما تصير عقلا بالفعل إذا حصلت فيها المعقولات، وتصير المعقولات التي بالقوة معقولات بالفعل إذا حصلت معقولة للعقل بالفعل... فإن ذلك العقل يعطي العقل الهولاني، الذي هو بالقوة عقل، شيئًا ما بمنزلة الضوء الذي تعطيه الشمس البصر، لأن منزلته من العقل الهولاني"².

يعني هذا أن القوة الناطقة تحدث فعلا عن طريق القوة، وذلك من أجلها تنتقل إلى شيء آخر، هذا أن المعقول يحدث بالقوة وبهذا فهو بالفعل راجع إلى معقولية العقل إذا كان بالفعل.

وعن الموجود الأول أو المحرك الأول لهذا الكون يقول الفارابي " الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها، وهو بريء من جميع أنحاء النقص، إما واحد وإما أكثر من واحد... فوجوده أفضل

¹. أبو نصر الفارابي، المرجع السابق، ص 76.

². المرجع نفسه، ص 101 - 102.

الوجود وأقدم الوجود، وهو من فضيلة الوجود في أعلى أنحائه، ومن كمال الوجود في أرفع المراتب... ولا يمكن أن يكون له وجود بالقوة، ولا إمكان أن لا يوجد ولا بوجه ما من الوجوه، فلهذا أزيي دائم الوجود بجوهره وذاته"¹.

الملاحظ من هذا أن العلة الأولى أو السبب الأول هو خالق وصانع كل الموجودات، لان الله لو كان مادة أو صورة لما كان لهذا الوجود موجود، هذا أن الله يعتبر علة أولى أزلية لأنه هو العاقل والمعقول لأنه يعقل ذاته فهو علم، لأن الصفات التي يمتاز بها من مسير، مدبر، وقادر... هذا لا يعني أن فيه كثرة، وإنما كل هذه الصفات تدل على واحد كامل وبسيط.

ويواصل القول " ...ولا أيضا لوجوده غرض وغاية حتى يكون، وإنما وجوده ليتم تلك الغاية وذلك الغرض، وإلا كان يكون ذلك مسببا ما لوجوده، فلا يكون سبب أولا"²، المقصود من هذا أن الله لا يعتبر غاية، وإنما وجوده ليكمل تلك الغاية أو الغرض، لأنه يعتبر الإرادة الإلهية لهذا الكون وما فيه، والسبب الأول للوجود وكل الموجودات.

ومن خلال هذا نستنتج أن العلة عند المسلمون عاجوها من خلال العلاقة بين الأشياء لأن باجتماع الصورة والمادة تتكون الأشياء، ولاحظوا على أن مبدأ العلية يختلف عن الأسس والمنطقية، وبعيد كل البعد عنها، واعتبروا على أن كل موجود له غاية، كما أن العلة والمعلول في علاقة تتابع، وعلى أن العلة الأولى لهذا الكون هي الله القادر على كل شيء، فهو الخالق لكل الأشياء والموجودات.

¹. أبو نصر الفارابي، المرجع السابق، ص 37 - 38 .

². المرجع نفسه، ص 38.

المبحث الثالث: العلية عند فلاسفة العصر الحديث

أخذ هذا المعنى عند فلاسفة العصر الحديث في التطور في عصر النهضة إلى الاعتماد على الملاحظة والتجربة، ويرجع الفضل إلى بيكون الذي نصح بالإقلاع عن البحث في الأسباب الفلسفية وخص على معرفة الشروط الطبيعية التي تسبق الظاهرة، وكانت تلك هي البدء في الوصول إلى تحديد معنى القانون أو العلاقة المطرودة كي يفهمها العلم الحديث هذا أن العلة نجدها في العصور الحديثة قد فهمت من خلال معنيين الأول تنص فيه على التعاقب الزمني وهذا يتعلق بالتصور التحريبي لليلة، أما الثاني ما يتعلق بالتصور العقلي.

حيث أن في العصر الحديث كانت العلية تكمن في العلاقة بين السبب والأثر، بحيث يكون الحديث الثاني نتيجة الأول، فنظرية العلية تعتبر نظرية موروثية في الفكر الفلسفي القديم، هذا أن مفهوم السببية هو ضرورة عقلانية، حيث كانوا يرون أن كل واقعة معينة هي مسببة من قبل واقعة معينة تسبقها، أي أن لكل ظاهرة في تصورها سببا يقن وراءها وبالتالي ما من شيء و إلا لوجوده سبب أي مبدأ تفسير وجوده.

ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

- ما مفهوم العلية عند فلاسفة العصر الحديث؟

اليلة من وجهة نظر فلاسفة العصر الحديث مرتبطة بما هو تجريبي وما هو عقلي حيث اليلة عند " ديكارت " والديكارتيين، ستعمل بالمعاني عينها، ولكنها تشتمل فوق ذلك على العلاقة المنطقية، كما أن اليلة الفاعلة لها عدة معاني: " يدل مفهوم اليلة على ضرب خاص من التوليف، قوامه أن شيئاً ما (أ)، يضاف إليه شيء ما مختلف تماماً (ب)، بمقتضى قاعدة"¹، والله علة وجود ذاته"².

المعنى من هذا أن اليلة تكمن في العلاقة المنطقية بين المعلول باعتبار أن وجود المعلول يقتضي وجود سبب وجود ذلك المعلول.

¹ أندري لالاند: " الموسوعة الفلسفية " ، ت. خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 2001، ج1، ص 157.

² إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 1983، ص 123.

ويتحدث ديكارت على أن كل علة فاعلة تملك من الكمال قدر ما يملك المعلول على أقل تعديل فيقول " بديهي الآن، بالنور الفطري، أن يكون في العلة الفاعلة السكلية، من الوجود قدر ما في معلولها، على أقل تعديل، وإلا من أن يستمد المعلول إلا من علته؟ وكيف تستطيع العلة أن تمد المعلول بالوجود؟ لو لم تملك الوجود في ذاتها"¹.

من خلال هذا يعني أن العلة في ذاتها تملك ما يسمى بالوجود وهذا الوجود هو الذي أضفى إلى خلق المعلول، لأن المعلول بلا علة أوجدته لا يعتبر موجود تابع لعله، هذا أن العلة الفاعلة يجب أن يكون في ذاتها موجود ليس كاملا بقدر الكمال الموجود في العلة الأولى.

ويواصل قوله من خلال طرحه السؤال " كيف ينتج عن ذلك أن كمال الفكرة يجب أن يكون حقيقيا وفعليا في علته؟ ينتج عن هذا ليس فقط أن العدم لا يحدث شيئا، بل أيضا أن الأكمل... تلك الحقيقة ليست واضحة، وبديهية، فقط بالنسبة للمعلولات التي لها ذلك الوجود، والتي سيسميها الفلاسفة بالواقع أو بالفعل، لكنها واضحة بالنسبة للأفكار التي يقتصر النظر فيها على الوجود الذهني مثلا الحجر الذي لم يوجد بعد، لا يمكن أن يبدأ الآن في الوجود"².

المقصود من هذا أن الكمال والعدم لا ينتج منها أي شيء، إلا أن هذا الفكرة غير ممكنة، لأن شيء إذا لم يكن موجود فهذا بالضرورة لا يمكن أن يبدأ في الوجود الفعلي.

وعن القول في العلة الأولى في إثبات الله يقول ديكارت " لو كنت مستقلا عن كل شيء، وكنت أنا خالق نفسي كما شككت في أمر، أو رغبت في أمر، ولا افتقرت إلى أي من الكمالات، ذلك لأنني امنح نفسي، حينئذ كل كمال يخطر ببالي، فأكون إلها"³.

¹. زنيه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ت. د. كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1988، ص 31.

². المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³. المرجع نفسه، ص 36.

المقصود بهذا أن الإنسان لو كان هو خالق نفسه لكان كاملاً، ولما شك في أمره، لان الكامل لا يفتقر لأي شيء ولو أن الإنسان مستقل بذاته لما منح لنفسه كل ما يريده ويخطر على باله وبهذا يكون إلهاً، إلا أن العلة الأولى الصانعة لهذا المخلوق هو الكامل (الله) الميسر لهذا الكون.

وفي حديثه عن العلة الثانية يقول ديكارت " قد أظن أن الأشياء التي تنقضي ربما هي أصعب منالاً مما املك الآن، بالعكس تماماً، وإن خروجي من العدم أن الشيء أو الجوهر المفكر أصعب تحققاً من اكتسابي علومها ومعارف كثيرة... لو منحت نفسي هذا المزيد من الكمال، أي لو كنت أنا نفسي خالق نفسي، لما هو متين على الأقل شيئاً من الأشياء الأيسر منالاً، كالكثير من الصفات المنظوبة في الفكرة، التي أذهنها عن الله " ¹.

وبذلك يعني أن الإنسان لو كان خالق نفسه لما حرم من أشياء عدة، بل تكمن لو أن العلة الأولى هي الإنسان لما كان يتميز بتلك الصفات لأن العلة الأولى تدبر، تفكر... لأنه يملك فكرة عن جميع الكمالات.

يقول ديكارت " ... وبعد ذلك، فأني لما فكرت في شكوكي، وأن مؤدي هذا أن ذاتي لم تكن تامة الكمال، لأني تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك، رأيت أن أبحث أني تعلمت أن أفكر في شيء أكمل مني، وعرفت يقيناً أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعة هي في الواقع أكمل " ².

يقصد من هذا الكمال خاص بالله تعالى، وليس في الإنسان لأن من الملاحظ أن ما يفكر فيه يكون منه، وهذا راجع إلى طبيعة كاملة التي أوجدت هذا الواقع والوجود، وهذا يعني كذلك لا يكون من المعلول ما ليس في العلة ".

وعن حديثه أن الإنسان ليس علة نفسه يقول " لذلك أريد أن أتجاوز هذا الأمر لا نظر ماذا كان باستطاعتي، أنا الذي املك هذه الفكرة عن الله، أن أكون موجوداً، لو لم يكن ثمة اله، وأسأل ممن أخذت وجودي؟ إما من نفسي وإما من أبوي، وإما من علل أخرى اقل كمالاً من الله، إذ لا يمكن أن نتصور شيئاً أكمل منه، ولا معادلاً

¹.رينه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية، ص 36.

².رينه ديكارت: مقال عن المنهج، ت . محمود محمد الحضيبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، دط، 1930، ص ص 58-59.

له، بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالاً "1... لأنني لو كنت وحيداً ومستقلاً عن كل ما هو غيري، لكنت أستطيع أن أحصل من نفسي للسبب عينه... "2.

الملاحظ من هذا أن الإنسان وجوده ليس علة نفسه، بل العلة لوجوده تكمن في كائن كامل، اوجد كل المخلوقات لان فكرة الله هي فكرة كائن أعظم كمالاً من فكرة أي شيء آخر، هذا أن الله يملك اليقين المطلق، وانه لا متناهي، على عكس الإنسان فهو كائن متناهي، وبهذا فهو يرفض أن تكون النفس أو الوالدين علة وجوده.

ويواصل القول " ... وبذلك أكون أنا نفسي غير منتهاه، وأزليا أبدياً، وغير متغير، وعالمًا بكل شيء، وقادراً على كل شيء وقصارى القول أن تكون لي كل الكمالات التي أستطيع أن ألحظ أنها لله... "3.

المعنى من هذا انه ليس علة بماله من القليل من الكمال، هذا أن العلة تكمن في عظيم الكمال ألا وهو الله القادر على كل شيء، وهو الذي خلق سائر المخلوقات والأشياء.

ومن خلال هذا نستنتج أن فلاسفة العصر الحديث قد فسروا العلة من خلال التفسير العقلي، وكذا التفسير التجريبي، واعتبروا على أن العلة تملك ما سمي الوجود الذي أدى إلى وجود المعلول، لان وجود المعلول دون علة يعتبر لا وجود له ولا علة له، ويرون أن الإنسان لو كان مستقلاً عن العلة الأولى والتي هي الله لما شك في نفسه، ولهذا فإن الله يعتبر المحرك الأول والعلة الأولى لهذا العالم لان الله يتصف بالكمال، وبهذا فالإنسان ليس علة ذاته.

وما نستخلصه من هذا على أن:

1- " العلية " في العصور الفلسفية المختلفة كان لها تفسير عند كل فيلسوف

فإذا كان تصور العلية عند أرسطو قائم على العلة الأربع، كما انه فضل العلة الصورية في تفسير لها، واعتبار أن المحرك الأول هو الله.

1.رينه ديكرت: تأملات ميتافيزيقية، ص 36.

2.رينه ديكرت: مقال عن المنهج، ص ص 60-61.

3.المرجع نفسه، ص ص 61-62.

2- فإن فلاسفة الإسلام كانت لكل فيلسوف نظر مخالفة، فابن رشد قال بالهولي والصورة والمحرك وكذا الغاية، كما ربط العلة بالدليل البرهاني وجعلها حدودا وسطي، لكن الغزالي يرى إن العلة سبب لوجود المعلول، كما اعتبار بأن هذا العالم له صانع أوجده وهو الله الفاعل لهذا الكون، أما الفارابي يرى بأن الصورة والمادة وجودهما ضرورة حتمية، لان وجود الأول يفوض وجود الآخر.

3- أما بالنسبة لفلاسفة العصر الحديث فكانت حشيات العلة عندهم منطلقة من تفسير عقلي وكذا تفسير تجريبي، فديكارت اعتبر بأن العلة على أنها تتبع المعلول وبهذا فهو يؤكد على علاقة العلة بالمعلول، ويؤكد كذلك على أن إثبات الله يعتبر علة أولى ولا يمكن للإنسان نفي هذه العلة.

وبهذا فإن العلة عبر المسار التاريخي أو منذ ظهور التفكير الفلسفي كانت موجودة لكن اختلفت وجهات النظر من خلال تصورهم لها. لأن كل عصر كان له تفسير مغاير وبهذا يمكن القول على أن مبدأ العلية كان مرتبط بالتصورات الفلسفية خاصة بما يتعلق بمجال البحث العلمي .

الفَصْلُ الثَّانِي

الفصل الثاني: في مفهوم العلية عند دافيد هيوم

المبحث الأول: نقد الأفكار الفطرية عند دافيد هيوم

المبحث الثاني: مفهوم العلية عند دافيد هيوم

الفصل الثاني: في مفهوم العلية عند دافيد هيوم

مبدأ العلية من الضرورات الأساسية للفكر، لأنه لا يحدث شيء بلا علة أو على الأقل بلا سبب محدد، فالسببية أو العلية هي موضوع فلسفي يعبر عن تلك العلاقة بين السبب و الأثر، بحيث يكون الحدث الثاني نتيجة للأول.

دافيد هيوم كان هدفه اثبات أن ماهية التجارب التي تسمح لنا ان نفهم " السبب " و " النتيجة " كأفكار مجردة، وقد اوضح " هيوم " أن التجارب لا نخبرنا بالكثير، فلنفترض وجود حدثان ، نقول أن السبب الأول نتيجة السبب الثاني عندما يحدث الاثنان معا دائما، أي انهما مرتبطان بشكل دائم، حيثما وجد السبب وجد الأثر، ولدينا ثقة كبيرة أن هذا الارتباط سيستمر بالحدوث عندما ندرك أن الأول يجب ان يسبب الثاني مساوية بسبب ارتباطهم الثابت، وبهذا يمكن القول الأثر سيتبع السبب، عندما نكون أمام مفهوم ضعيف جدا حول الضرورة بنظره، وإن هذا الإدراك الضعيف حول الفاعلية العلية يجعلنا غير محقين في اتخاذ أي استدلال.

هذا يؤكد على دراسة الأسس التجريبية التي قادت " هيوم " لمفهومه حول العلية قبل تفصيل تعريفه عن العلية وكيف استخدم هذه الافكار.

فهيوم يعتبر " إن فكرة العلية قائمة على أسس ثلاث هي الإتصال، الأسبقية وكذا الإرتباط الضروري، حيث يعتبر أن الأسباب والمسببات متصلة ببعضها، وعن فكرة الأسبقية يبقى في نظرة غير قابل للتدليل بنوع من الاستنتاج وكذا البرهان"¹.

وعليه من خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

— ما هو مفهوم العلية عند هيوم ؟ وما موقفه من نقده للأفكار الفطرية؟

¹. عمرو بسيوني: الأسس اللاعقلية للإلحاد " مشكلة العالم نموذجا"، www.nama.center.com، 26 فيفري 2017، 11:25.

المبحث الأول: نقد الأفكار الفطرية عند دفيد هيوم

يعتبر هذا الموضوع قد حظي بأهمية بالغة، وذلك أن البحث في هذا الموضوع يرتبط ارتباطا وثيقا في البحث عن قيمة المعرفة، فالكلام يقع في هذا الأمر وهو أن هذا النوع من الإدراك المسمى بالفطري أهو من لوازم كيفية تكوين العقل الانساني بحيث يصبح من الممكن أن يدرك عقل موجود آخر، أو إذا كان عقل الإنسان قد خلق بشكل آخر فإنه سيدرك الأمور بصورة أخرى، أم أن هذه الإدراكات مطابقة للواقع تماما وهي تعكس الأشياء كما هي في نفس الأمر، وكل موجود يتمتع بالعقل فإنه سيدركها بنفس هذه الصورة؟

لقد تأثر هيوم* بجون لوك في نقد المذاهب العقلية، حيث تعتبر هذه النظرية من أشهر النظريات الفلسفية التي سطرها جون لوك كانت معرفة الشخص لا يمكن أن تتجاوز تجربته، وهناك من كان ضد النظرية التي طرحها فلاسفة العقلانية في تفسير كيف تصل للمعرفة دون تجربة؟ والتي يشار بها باسم أحيانا بنظرية الأفكار البديهية والتي تقول أن البشر يولد بأفكار بديهية والتي عن طريقها ممكن أن نصل للمعرفة عن طبيعة العالم والأشياء التي حول الإنسان بشكل مستمر، فكثير من الباحثين يعتقدون أن القضايا العقلية الأولية فطرية، ولكنهم لا يعلمون بشكل دقيق ما المراد بمصطلح الفطري هنا إذ أن لهذا المصطلح أكثر من معنى، والمعاني المتعددة لهذا المصطلح غالبا ما أوقع هؤلاء الباحثين في الخلط بينها، وهذا ما أدى بهم في الوقوع في الكثير من المفهومات الخاطئة، هذا يعتبر سبب، أما حين يصل البحث إلى الأفكار الفطرية كثيرا ما يحصل خلط بين نوعين او موضوعين أحدهما يرتبط ببحث التصورات، والاخر يرتبط ببحث التصديقات.

وعلى هذا يوضح دفيد هيوم هذه النظرية حيث يعتبر أحد التجريبيين البريطانيين في العصر الحديث، حيث كان من المؤيدون لمعايير تجريبية متماثلة حول المعرفة، وأنه لا يوجد أفكار فطرية، وأن كل المعارف تأتي من التجربة، فقد عرف بتطبيقه لهذا المعيار بصرامة في السببية والضرورة، فيرى أن موضوعات الفهم البشري تعود كلها إلى الانطباعات والأفكار، وما أفكارنا في الأخير إلا نسخا من انطباعات سابقة، هكذا وترد هكذا جميع معارفنا إلى الحس والتجربة، ولما كان للأفكار الميتافيزيقية ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

- ماهو النقد الذي وجهه هيوم لنظرية الأفكار الفطرية؟

* هيوم، دفيد: " HUME. DAVID"، عاش ما بين (1711 / 1776) فيلسوف ومؤرخ وعالم اقتصاد اسكتلندي، ولد وتوفي في ادنبره، هو مادي، حسي تجريبي ملحد أهم كتبه: بحث في الطبيعة الإنسانية، ثلاث أجزاء، وفحص عن الفهم الإنساني، وكذا عن مبادئ الأخلاق، وله كانت محاورات في الدين الطبيعي، انظر" جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 3، 2006، ص 726. 727.

انطلق **دفيد هيوم** (1711 / 1776) من المبادئ الأساسية التي تحرك النفس الإنسانية من مشاعر، أحاسيس و أفكار، فهو يدرس الطبيعة البشرية من منطلق أنها مكونة من إدراكات بسيطة يضيع منها الفهم ادراكات مركبة، حيث كان نقده **للأفكار الفطرية** كان من خلال حصر إدراكات الذهن في صنفين: الانطباعات والافكا فيقول " بإمكاننا أن نقسم ادراكات الذهن جميعها إلى نوعين يتميزان باختلاف درجة القوة والحيوية، فالتى من نوع اقل قوة و اقل حيوية تسمى في العادة أفكارا أو ايديات، أما التي من النوع الآخر فتفتقر إلى اسم ... فتأخذ حريتنا اذن ولنسمها انطباعات"¹.

المعنى من هذا أن الأفكار هي مجرد انعكاسات باهتة للإحساسات على مرآة افكارنا، ولهذا يرى بأن الانطباعات أقوى من الأفكار واشد تأثيرا وحيوية.

وعن فكرة الانطباع يوضح **دفيد هيوم** من خلال قوله " أعني إذن بلفظ انطباع كل ما هو أكثر حياة في ادراكاتنا حين نسمع، نرى، نلمس، نحب ونكره، ونرغب ونريد"².

المقصود من هذا أن الانطباع مرتبط بكل ما يشعر به الإنسان من عواطف وغيرها، وهذا يوضح على أن المعرفة الإنسانية مرتبطة بالتجربة، وبهذا فإن الانطباعات تختلف عن الأفكار، وهنا يؤكد **دفيد هيوم** إنكاره في أن تكون لدينا أفكار عامة مجردة، هذا أن الانطباع يعني أيضا الإدراك ذاته.

ويقول أيضا " أن كل مواد التفكير مستمدة من الحواس الخارجية أو الباطنة، وما يخضع للذهن أو الإرادة إنما هو خلطها وتركيبها، أو ما أعبر عنه بلغة فلسفية: جميع أفكارنا أو إدراكاتنا الأضعف، هي نسخ انطباعاتنا أو إدراكاتنا الأكثر حياة"³.

يعني هذا أن الانطباعات تطبع أولا في الحواس، ومن هذه الانطباعات تتولد الأفكار في العقل، هذا أن الانطباعات هي جملة الإدراكات التي تدخل الذهن بأشد قوة وعنفة، وتعتبر أكثر وضوحا وتميزا من الأفكار، أما الأفكار هي الصورة الخافتة لهذه الانطباعات في التفكير والاستدلال، والفرق بينها يكمن في درجة القوة والحيوية،

¹. ديفيد هيوم: **مبحث في الفاهمة البشرية**، ت د. موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 38.

². المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³. المصدر نفسه، ص 40.

فمثلا عندما أدخل الغرفة أو المكتب فإني استقبل انطباعات، بينما عندما اخرج، وأفكر، فإن الأفكار التي أكونها تمثل الانطباعات التي شعرت بها.

ثم يشرح هيوم في تقسيم الأفكار إلى بسيطة وأخرى مركبة فيقول "إننا عندما نحلل خواطرننا أو أفكارنا، مهما كانت مركبة أو جليلة، نجد دائما أنها تدخل إلى تلك الأفكار البسيطة التي نسخت عن سابق شعور أو إحساس، وحتى تلك الأفكار التي تبدو للوهلة الأولى أبعد ما يكون عن هذا الأصل، فإننا نكشف بعد تدقيق النظر أنها إنما اشتقت منه"¹.

المقصود من هذا أن الأفكار البسيطة أو الادراكات البسيطة هي ادراكات لا تتجزأ، كما هي نسخ عن الانطباعات وتمائلها، في حين الأفكار المركبة ما هي إلا من الأفكار البسيطة المشتقة من الانطباعات وجميعها مستمدة من التجربة، وبهذا يؤكد هيوم ما ذهب إليه لوك أن الأفكار ليست فطرية وإنما كل أفكارنا مشتقة من الخبرة الحسية، ومن أن العقل خال من أي معان سابقة على التجربة، فالمعرفة الإنسانية بعدية ومكتسبة.

أعلى هيوم من شأن الانطباعات الحسية حيث يرى " أن ما نسميه بالأفكار العقلية ليست في حقيقتها إلا صورا باهته متضائلة ضعيفة التأثير لانطباعات حسية ففكرتي التأملية عن الشيء الذي أمامي عبارة عن صورته الحسية التي انطبعت على حواسي، لكن بعد أن ضعف تأثيرها وأصبحت باهته، ولو ظلت الصور الحسية لهذا الشيء على قوتها وقت انطباعها على حواسي ما تحولت إلى " فكرة"².

المقصود من هذا أن الحواس هي وليدة معارفنا، وهو بهذا ينكر وجود أفكار فطرية أو ما يسمى بالأفكار العقلية، فالمعرفة الحسية عند فلاسفة اليونان قالوا بأنها مجرد معرفة ظنية، فأفلاطون وصفها بأنها مجرد أشباح وظلال، أما في نظر أرسطو يعتبرها مجرد " هيولي" أو مادة تمثل قابلية عامة لكي تتشكل بالصور الذهنية، لكن في نظر الفلاسفة التحريبيين ومن بينهم هيوم هي الأصل والمصدر الأساسي لكل معرفة.

يذهب " هيوم" إلى ما ذهب إليه " لوك" من قبله من أن العناصر التي تتألف منها معرفتنا كلها من المدركات البسيطة التي تتلقاها عقولنا وتنفعل بها، دون أن يكون لهذه العقول أي أثر فعال فيها"³.

¹. دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ت. د. محمد محبوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 42.

². يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة، القاهرة، مصر، دط، 1993، ص 62.

³. زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، دط، 1936 ص 234.

المعنى من هذا أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان كلها مشتقة من الأفكار البسيطة، وهذا كله مرتبط بالإحساسات والمشاعر والانفعالات.

وفي حديث هيوم عن تداعي الأفكار ومدى ارتباطها بالذاكرة والتخيل يقول " من الواضح أن ثمة مبدأ للاقتزان بين أفكار الذهن أو أيدياته المختلفة فهي في ظهورها للذاكرة أو المخيلة، تتداخل بعضها في بعض بدرجة معينة من الترتيب والانتظام، وفي أكثر تفكيرنا يتضح الأمر إلى حد أن أي فكرة خاصة قد تكسر سياق الأفكار وتسلسلها ... بل نجد في كثير من مناماتنا، أن ما تأملناها، أن المخيلة لم تكن تجري على غير هذه المرة بل هناك أبدا اقتزان بين مختلف الأفكار"¹.

يعني هذا أن تكوين الأفكار من خلال ملكين، فهناك الذاكرة التي تقوم بحفظ الأفكار واسترجاعها، وفق ترتيب معين على المنوال الذي يكون العقل حصل عليها بدرجة من الحيوية والقوة، وهناك المخيلة التي تتميز عن الذاكرة بالحرية في التصرف بالأفكار، وبهذا فالعناصر البسيطة لا تخرج عن كونها انطباعات بسيطة حسية أو تأملية.

فالخيال يبقى لدينا هو الذي يقوم باستدعاء المعرفة إلى عقولنا عن طريق مبدأ الذاتية الذي يقع بين الشيء المدرك وبين استدعائه وبهذا " نميز بين الخيال والذاكرة، فالذاكرة هي درجة من درجات المعرفة التي تبدأ من الانطباعات مروراً بالذاكرة ثم الخيال وأخيراً إلى الأفكار، وعلى هذا فالخيال والذاكرة شيء واحد"².

يشير من خلال هذا على أن الذاكرة والخيال تعمل على تأليف الأفكار وترابطها، وأن الذاكرة والخيال اختلافهما يكون في درجة الوضوح والتميز، فالخيال يتناول الأفكار البسيطة، هذا أن المفاد من الذاكرة والخيال هو الانتظام والترتيب.

ويحدد هيوم القوانين التي يتم بواسطتها الربط بين الأفكار أو المعاني فيقول " ورغم أن ارتباط الأفكار المختلفة قد بلغ من البدهة مالا يمكنه معه أن يدق عن الملاحظة، فإني لا أرى من الفلاسفة من حاول إحصاء مبادئ التداعي أو تصنيفها ... وعندني فإنه يظهر أنه ثمة فقط ثلاثة مبادئ للترابط بين الأفكار، وهي التشابه، التماس في الزمان والمكان، السبب والمفعول"³.

¹ دافيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 45.

² إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكرت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2001، ص 329.

³ دافيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 48.

الملاحظ من هذا أن بالخيال يتم الربط بين الأفكار التي تشابهت انطباعاتها أو تجاوزت في المكان والزمان أو اقتزنت سببا، وهذه الأفكار تتداعى بحسب قوانينها، هذا أن التشابه مفاده أن الإفطار تستدعي بعضها البعض، إذا ما كان بينها تشابه، أما الافتزان الزماني والمكاني يعني أن اقتزان فكرتين أو أكثر في مكان ما أو زمان ما، أو في المكان والزمان معا: تستدعي أحدهما الأخرى، أما بالنسبة للسبب والمفعول (النتيجة) أو العلاقة العلية، إذ النتائج ترتبط وتستدعي أسبابها، والعكس أيضا، هذا أن فكرة النار مثلا تستدعي فكرة الحرارة.

يجيل هيوم على أن هذه المبادئ تصلح لافتزان الأفكار حيث يقول " ... فاللوحه تذهب بأفكارنا، إلى الأصل، وذكر المنزل في المبنى يؤدي، طبيعيا، إلى التحري عن المنازل الأخرى أو الكلام عليها، وإذا ما فكرنا في الجرح نكاد لا نستطيع عن التفكير في الأم الذي تليه"¹.

المقصود من هذا أنه لا توجد مبادئ أخرى للتداعي سوى هذه، لأن هيوم بهذا يؤكد على التشابه، وكذا المكان والزمان والسبب والنتيجة في تكوين وربط الأفكار، وبهذا فهو يرفض فكرة وجود أفكار فطرية، أو أفكار قبلية، لأنه يؤمن بما هو مكتسب، لأن كل ما يعلمه الإنسان راجع إلى ما يحسه وما يشعر به من الانفعالات والإحساسات، وعليه فمبدأ تداعي الأفكار، هو الأفكار المركبة، التي يصنفها هيوم إلى ثلاث: العلاقات، الأحوال، الجواهر.

ويذهب بعد ذلك هيوم إلى تحديد العمليات الاستدلالية العقلية التي تكشف عن العلاقات إما بين أمور الأفكار وإما بين أمور الواقع فيقول " يمكن لجميع موضوعات العقل البشري إلى ضربين هما: علاقات الأفكار، والوقائع، من الضرب الأول علوم الهندسة والجبر والحساب، وباختصار كل إثبات يكون يقينيا إما بالحدس أو بالبرهان ...، أما الوقائع التي من الضرب الثاني من موضوعات العقل، فلا يمكن التيقن منها بالطريقة عينها... فالضد من أي واقعة يظل ممكنا، لأنه لا ينطوي على أي تناقض، والذهن يتصور بمثل السهولة والتميز..."².

يبين من خلال هذا أن الضرب الأول هو برهاني وهو وسيلة الرياضيات والصدق فيه تام دون الحاجة إلى التجربة، أما في الثاني فالصدق لا يستدل عليه إلا في التجربة كما هي الحال في العلوم الطبيعية التي تتبع قيمتها لعلاقة السبب والنتيجة، وبالتحليل يجد هيوم أن مبدأ السببية ليس نظريا إذ لا شيء فطري في العقل، وليس مكتسبا لا بالحس الظاهر أو الباطن فهو ليس معرفة مباشرة بقوة خفية وليس بالاستدلال، هذا أن معنى العلة

¹. دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 46.

². المصدر نفسه، ص ص 49 . 50.

والمعلول متغايران، وكل ما هناك من وجهة نظر هيوم أن التجربة تبين تعاقب الحوادث وإطراد وقوعها على منوال محدد يخلق في الذهن استعداد الربط السبب بالمسبب والانطباع بالفكرة.

يبين هيوم أنه يجب أن نبحث عن كيفية التواصل إلى معرفة السبب والمفعول من خلال قوله " ... أن معرفة هذه العلاقة لا تحصل بأي حال من الأحوال بواسطة استدلالات قبلية، وإنما هي تنشأ كلياً عن التجربة عندما نجد أن أي موضوعات مخصوصة فيما بينها ترابطاً متواتراً... فإنه ما كان لآدم ... أن يستنتج من سيولة الماء وشفافيته أنه يمكن أن يشرق به ويغص، ومن حرارة النار أنها يمكن أن تحرقه، لا شيء يكشف بواسطة الخاصيات ... ولا عن الآثار التي تنجم عنه، ولا يمكن لعقلنا، إذا لم تسنده التجربة"¹.

يعني هذا أن معرفة العلاقة بين السبب والمسبب تكون عن طريق التجربة المصدر الأساسي كما يؤكد هيوم للمعرفة، فالعقل لا يعتبر ولا يعطي معرفة يقينية، إذا ما كانت هناك تجارب قائمة على الانطباعات والانفعالات، والمشاعر، وعليه فالأسباب والمفاعيل لا تكتشف بالعقل وإنما بالتجربة وهذا ما يصفه هيوم في كتابه " تحقيق في الذهن البشري " حيث يقول " ... وكذلك يسهل التسليم بأن الأحداث التي تكون بعيدة الشبه بما يجري عامة في الطبيعة، لا تعرف إلا بالتجربة، فلا أحد يتخيل أن انفجار البارود، أو جاذبية حجر المغناطيس يمكنها أن يكشف بواسطة حجج قبلية"².

المعنى من هذا أن كل ما يحدث هو من قبيل التجربة، هذا كل ما في الطبيعة مرده إلى التجربة، وهذا يعني أن معرفتنا بما يحدث هو بمثابة معرفة مكتسبة، وهذا ما يؤكد جون لوك في نقده لنظرية الأفكار الفطرية وبحسب " لوك " أنه لا نستطيع أن نتأكد من أي معرفة خارج ذاتنا، بدون ما تزودنا به الخبرات التجريبية، فالتجربة عند " هيوم " هي فيصل التأكيد... وهذا يعني أن المعرفة الإنسانية عاجزة خارج إطار المحسوسات التجريبية"³.

القصد من هذا أن المعرفة الإنسانية، أو كل ما يحس به الإنسان من مشاعر ورغبات ناتجة كلها عن تفاعل الانطباعات الحسية والتجربة والإدراك الحسي يعتبر مصدر المعرفة للإنسان، هذا أن الحواس تأتينا بالمادة الخام من أحاسيس ومشاعر، وبهذا يرى " هيوم " أن ما قدمه الفلاسفة في رفض فطرية الأفكار، لا تعبير شيئاً بذكر، فقد رفضوا أن تكون أفكار الإحساس كاللون فطرية بحجة أننا نحصل عليها عن طريق الحواس، ولكي يبرهنوا على أن أفكار اللذة والرغبة غير فطرية، رأوا أنها نتيجة تجارب سابقة، وما دامت كذلك فهي ليست فطرية، هذه الأدلة

¹. دافيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 53-54.

². المصدر نفسه، ص 54.

³. هاني يحي نصر: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، دار المجد، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 183.

بنظر " هيوم "، لا تقدم شيئاً ما دام الفطري بنظرهم ما ليس منسوخاً من أي انطباع، واعتبر أن الانطباعات الحسية التي نحصل عليها من العالم الخارجي هي الخطوة الأولى في تكوين المعرفة بمعنى أن الحواس هي بوابتنا إلى العالم الخارجي وطريق للحصول على المعرفة، وبهذا فهي تلك الإدراكات التي نحصل عليها بصورة مباشرة من التجربة الحسية.

ويؤكد هيوم أن العقل ليس له أهمية في الوصول إلى المعرفة من خلال " ... أن العقل أيضاً مجرد " وهم " لا وجود له، فلا مادة هناك ولا عقل، إذ أن التجربة هي المصدر الوحيد لعلمنا، وكل ما ندركه من تجارب حياتنا هو مجموعة من إحساسات، وما دام العقل لا يعلم إلا طائفة من الإدراكات الحسية، كان من المستحيل أن تكون بعقولنا عن شيء ما تكون مخالفة في نوعها للأثار الحسية"¹.

الملاحظ من هذا أن كل أفكارنا صادرة عن تجربة، وأنه ليس لدينا أفكار فطرية، ولم يعد هناك دور مهم للعقل سوى التذكر وإعادة تركيب الصور الحسية، هذا أن كل الأفكار في نظر هيوم مستمدة من التجربة، وهذا ما دعى إليه جون لوك، وبركلي، حيث يعتبرون أن العقل لا يعرف سوى مجموعة من الإدراكات الحسية، ويوضح في موضع آخر حيث أن " ... الحواس تأتينا بالمادة الخام من أحاسيس تسلك إلينا هذا الطريق، إذا تهجم على العين والأذن ... ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما كانت معرفة، لكن هنالك وراة الحواس " عقلاً " لا بد أن يكون قد جهز بمقولات تنصب فيها مادة الإحساسات فتكون بذلك علماً سوياً"².

المعنى من هذا أن مصدر المعرفة هي الحواس: وأن دور العقل هو ما هو إلا ملكة لترتيب وإعادة تنظيم وتركيب هاته الأفكار، فالمعرفة بهذا مصدرها الإدراك الحسي عن طريق المشاهدة.

كما أنه يبين لنا أن المعرفة مستمدة من التجربة الحسية وذلك من خلال " ... فبناء المعرفة على التجربة وحدها، مما يعني ضرورة رفض الأفكار الفطرية التي قال بها ديكارت ... وعلى ذلك ينبغي أن يبدأ الذهن كصفحة بيضاء، تزودها التجربة بمضمونها الفعلي"³.

المقصود من هذا أن كل معارفنا مستمدة من التجربة، وكذا الإحساس بتلك المعارف، وبهذا إنكار لما سمي بوجود أفكار قبلية (فطرية) في الإنسان، وهذا أن المعرفة هي نتاجاً للتجربة الحسية، هذا أن في نظر " لوك " أن المعرفة تأتي من ملاحظة العالم الخارجي عن طريق حواسنا، وكذا تلك الأفكار التي تنشأ عندما يلاحظ الذهن

¹.أيوب أبو دية: العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيك إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 231.

².زكي نجيب محمود: نافذة على فلسفة العصر، ت.د. محمد الرميحي، دط، 1990، ص ص 111-112.

³.برتراند راسل: حكمة الغرب " الفلسفة الحديثة و المعاصرة"، ت.د. فؤاد زكريا، دط، 1983، ج2، ص ص 84-85.

ذاته، وعليه فالتجريبية ترى أن كل هاته المعارف المصدر الوحيد لها هو التجربة والحواس، على عكس العقلايين الذين يقرون بأنه هناك أفكار فطرية، وأن كل معرفة فطرية، هذا أن الحس يعتبر المجال الوحيد للمعرفة، ومنبع فريد للإدراك، فالمعارف عند هيوم تقوم على أساس حسي بحت، فهيوم يؤكد بأنه ليس ثمة أفكار مفطور عليها العقل منذ ولادته على الإطلاق، إذن فهي وهم واختلاف من العقل، كما يرفض كل الأفكار والمبادئ والاستعدادات الفطرية، ويذهب على العكس من ذلك أن العقل يولد صفحة بيضاء تخلط عليه التجربة سطورها، ولا شيء نجده في الذهن مما لم يكن من قبل موجودا في عالم المحسوسات، ومن ثم يقوم الإنسان بعد هذا بالربط بين هذه المحسوسات ربطا آليا فيحصل على الأفكار، وهذا ما يؤكد له لوك حيث أنه فسر الفكر تفسيراً آليا عن طريق تداعي وترابط الأفكار على نحو آلي ميكانيكي لا أثر فيه للفاعلية الذهنية.

ونستنتج من خلال هذا أن موقف دفيد هيوم من الأفكار فطرية هو تأكيده على عدم وجود ما يسمى بالفطري، هذا أن الإنسان يولد صفحة بيضاء، وأن التجربة والخبرة هي التي تساعد الإنسان على اكتساب المعارف، إضافة إلى هذا أن المعرفة الإنسانية كلها مشتقة من الخبرة والتجارب، التي يقوم بها الإنسان من أجل الوصول إلى غاية ما، على عكس العقلايين الذين يقرون بوجود أفكار فطرية، فهيوم يرفض بأن تكون المعرفة الإنسانية لها علاقة بوجود أفكار مجردة وبديهية.

المبحث الثاني: مفهوم العلية عند دافيد هيوم

مفهوم العلية ظهر منذ بداية التفكير الفلسفي، فالإنسان يسلك ويفكر على هداه، حيث يعتقد أن لكل حادثة علة، لكن السؤال المطروح ماذا نعني بالعلية؟

يمكن القول أن ما يجعل شيئاً يحدث شيء آخر، وأما يجعل شيئاً يحدث بعد أن لم يكن، فمثلاً مات فلان بعد إصابته بالحمى ... هذا مثال يسير إلى ارتباط حادثتين ارتباط معلول بعلة، ويبدو تصور العلة نشأ لدى الإنسان من إسقاط قدرته أو إراداته على العالم الطبيعي، أي يحس أنه علة فاعلية في حركاته وأداء رغباته وأغراضه ومن ثم يمثل العالم الطبيعي قوة مماثلة محرّكة وفاعلة، أن الخبرة بهذه الفاعلية أساس فكرتنا عن العلية.

وللفيلسوف التجريبي دافيد هيوم نظرية في العلية - ولا يزال - لها أكبر الأثر في الفلسفات التالية بوجه عام، كما أن لها تأثيرها على الاستدلال الاستقرائي بوجه خاص، ومبدأ العلية هو أساس المعرفة العلمية التي تقوم على مبدأ اقتران السبب والنتيجة كفكرة الجرح تستدعي فكرة الأم، ويعتبر من أهم العلاقات في المعرفة العلمية خاصة في العلوم الطبيعية، أي كل حادثة لها سبب يؤدي إلى حدوثها، ويعتبر مبحث السببية أو العلية من المسائل التي أثارها وبحثها هيوم بين الباحثين.

ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

- ماهو مفهوم العلية عند دافيد هيوم؟

يذهب هيوم إلى أن العلية ليست إلا انتظاماً معيناً لتسلسل ما حيث يقول " ... نحن لا يجب أن تلقى مثل المنطق أي من الملاحظات نحن قد جعل المتعلقة بالهوية، والعلاقات بين الزمان والمكان، منذ ذلك الحين في أي منها العقل يمكن أن تتجاوز ما هو موجود على الفور إلى الحواس، أما لاكتشاف وجود حقيقي أو علاقات الكائن، السببية فقط التي تنتج مثل هذا بمناسبه، كما أن يعطينا ضمان وجود أو عمل كائن، وهذا التو أو يسبقه أي وجود آخر أو عمل"¹.

¹.David Hume: **A treatise of Human Nature**. Part.SIV.Rcprinted from the Original Edition Three and Edited. By L.A Selbybigge, M. Alascford, clarendon press, 1739, p 44.

الملاحظ من هذا أن السببية لا يمكنها تقديم تبرير عقلي باعتباره قادرا على إحداث نتيجة ما، لأنها بذلك سوف تكون مجرد تتابع لأحداث وليس في هذا التتابع أي ضرورة منطقية أو طبيعية، وأن كل ما تؤكد الحواس والخبرة هو ارتباط سبب بنتيجة في الماضي، أما الانتقال إلى حتمية هذا الارتباط في المستقبل فلا يمكن تبريره.

ويواصل قوله عن فكرة السبب والنتيجة " ... ولا يمكن للعلاقات الأخرين بذل أي وقت مضى استخدام في المنطق، إلا بقدر ما إما تؤثر أو تتأثر به، لا يوجد شيء في أي الكائنات، أنهم إما طرق التحكم عن بعد أو متجاوزة دائما، وعندما تكتشف من التجربة والملاحظة، أن علاقتها في هذا الخصوص هي الثوابت، فإننا نستنتج دائما ما يدعو السري الذي يفصل أو يوحدهم نفس المنطق يمتد إلى الهوية"¹.

المعنى من هذا أنه بناء على أحداث الماضي لا يمكن التنبؤ بإحداث المستقبل إلا بشكل احتمالي، وهذا ما يؤكد هيوم حول فكرة الاحتمال وكذا فكرة السبب والنتيجة، ويقر بأنه ما كان منتظما في الماضي يمكن أن لا يكون منتظما في المستقبل، ودون الوقوع في أي تناقض عقلي.

ويقول " ... لكن هذا الاستنتاج ما وراء انطباعات الحواس لدينا يمكن أن يقوم إلا على مناسبة بين السبب والنتيجة ... وأن الهدف من ذلك هو لا علينا، مهما الكائن الجديد قد سببه ذلك الذي كان سابقا الحاضر للحواس، ... ثم يبدو أن هذه العلاقات الثلاث، التي تعتمد على مجرد أفكار فقط، والتي يمكن وراء حواسنا ويبلغنا من الوجود والأشياء، وهو ما كنا نفعله لا يرى أو يشعر، هو العلاقة السببية"².

المقصود من هذا على أن كل ما يستنتجه الإنسان في الواقع مرتبط بعلاقة بين السبب والنتيجة (الأثر والمؤثر)، كما أن العلية هي أوسع الروابط، هذا أن كل ما يقع من حوادث بين الأشياء إنما يحدث وفقا لقاعدة العلية.

وشأن ضرورة وجود سبب يطرح هيوم سؤال حول لماذا سبب ضروري دائما؟ فيقول " إن كل ما يبدأ في الوجود، يجب أن يكون سببا للوجود يؤخذ هذا عادة لتمنح في كل التفكير، دون أي دليل معين ... ينشأ عن اليقين من المقارنة بين الأفكار، ومن اكتشاف هذه العلاقات كما هي غير قابل للتغيير طالما استمرت الأفكار

¹David Hume : **A treatise**, p44.

².Ibid, p45.

نفسها هذه العلاقات هي تشابه، نسب في كمية ودرجات أي نوعية والتناقض مهما كان له بداية أيضا له سبب وجودها"¹.

المعنى من هذا أن السبب يجب أن يكون موجود وهذا ضرورة حتمية إلا أن هذه الصورة مرتبطة بالحس والعواطف، لأنهما من شيء إلا وله ارتباط من قبيل الخبرة والتجربة، وهذا ما يبينه هيوم لأنه يعترف بعدم وجود رابطة ضرورية إلا إذا كانت للتجربة الحسية والانفعالات لها دخل في هذا، لأن الحواس هي القوام والمصدر الأساسي حسب هيوم لمعارفنا وكل ما يصدر عنا، ويواصل قوله " ولكن هنا هو حجة، أن الاقتراح الوارد أعلاه هو لا حدسي، ولا يقين واضح، لا يمكننا أبدا أن نثبت وجود سبب ... وأنه كل الأفكار المتميزة هي فصل من بعضها البعض، وبما أن الأفكار بين السبب والنتيجة هو الضعف الاقتصادي متميزة على الآخرين يكون من السهل علينا أن نتصور أي كائن أن يكون غير"².

من خلال هذا يمكن القول على أن فكرة السبب يجب أن تكون ضرورية إذا كانت مرتبطة بالانفعالات، لأن إثبات وجود السبب يعتبر غير ممكن إذا ما كان يحمل في طياته نوع من اليقين وكذا فإن فكرة السببية مرتبطة بالآثار الحسية التي تنشأ ما سمي بالمشاعر والانفعالات ... وغيرها، إضافة إلى هذا فإن فكرة الضرورة مرتبطة عند هيوم بما يسمى بفكرة العادة، هذا أن الإنسان في رؤيته لحادثة تتبع حادثة أخرى مرده إلى التعود، وبهذا من قبيل الخيال يتوهم أن الأولى علة للثانية، لكن في التجربة لا يوجد ما يسمى رابطة ضرورية لوجود ذلك السبب فهو بهذا يريد أن تكون النتيجة متضمنة في السبب، والتجربة الحسية عنده لا تشهد إلا بوجود تكرار بين الأحداث.

وفي حديثه عن مبدأ العلية وتصورها عنه، يرى أن كل ما له علاقة بالحوادث التي تقع في تجارب تقوم على أساس السببية ويؤكد قائلا " ... فلو سألت احدهم لماذا يعتقد بأن واقعة غائبة عنه، مثال أن صديقه هل هو في البلد أم في فرنسا، فسيعطيك علة لذلك، وستكون العلة واقعة أخرى ..."³.

المقصود من هذا أنه هناك تتابع بين السبب و المسبب، وعليه فالعلاقة بين السبب والمسبب هي تعتبر علاقة يتجاوز بها الإنسان حدود شهادة الحس وشهادة الذاكرة في حكمه على وقائع العالم الطبيعي، وهذا ما يؤكد هيوم بين هاته العلاقة.

¹David Hume, **A treatise**, p 47.

²Ibid, p47.

³.دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 51.

ويواصل القول " ... فكل تعليلاتنا المتعلقة بالواقعة هي من الطبيعة عينها، وهنا يفترض باستمرار أن ثمة اقترانا بين الواقعة الحاضرة وما نستدل عليه منها ... إن سماع صوت واضح اللفظ وحديث معقول في الظلمة، يؤكد لنا وجود شخص ما، لماذا؟ لأن ما سمعنا هو من آثار فعل الإنسان وصنعه، وهو على اقتران وثيق بهما"¹.

المعنى من هذا أن كل حادثة ولها حادثة سابقة عنها، هذا أن سماع صوت يحملك إلى أنه كائن عاقل، لأن الربط بين الكلام أو الحديث وبين ما يتصور في ذهنك على أن ذلك الصوت يرتبط بالإنسان وبهذا تكون العلاقة علاقة سببية، ربط السبب بالمسبب حيث تفترض مثلا " انك سمعت صوتا بشريا، سبق طريقه عبر ظلام دامس، يتحدث حديثا معقولا، ألن تحكم مباشرة بأنه صوت إنسان عاقل، على الرغم من عدم رؤيته له؟"².

يعني هذا أنه هناك علاقة ربطت ربطا سببيا بين الحديث وبين الجهاز الآدمي فتوصلت إلى النتيجة، فتكون العلاقة هنا السبب و المسبب أو بين حادثتين، وهذا يعني أن لكل حادثة علة.

ان معرفة العلاقة بين السبب والمفعول من خلال طرح تساؤل ألا وهو: فيما تتمثل كيفية الوصول إلى معرفة السبب والمفعول؟ حيث يقول هيوم في هذا " إن معرفة العلاقة لا تتحصل من تعليلات قبلية بل تتولد بأسرها من الخبرة حيث نجد أشياء معينة تترافق بعضها مع بعض بشكل مستمر"³، هنا يتضح أن الخبرة والتجربة من خالهما يمكن لنا معرفة العلاقة بين السبب والنتيجة.

ويواصل قوله " ... لنقدم شيئا ما لامرئ على أتم ما يمكن من قوة العقل والاستعدادات، فإن كان الشيء جديدا كل الجدة بالنسبة إليه فإنه سيعجز عن اكتشاف أي سبب من أسبابه أو أثر من آثاره عن طريق تفحص خاصياته الحسية ..."⁴.

الملاحظ من هذا مهما كانت الاستعدادات الذهنية قوية من حيث الدرجة والحيوية ليس لها معرفة لتلك العلاقة، ما دامت أنها ليست قادرة على تفحص الخاصيات والمبادئ المتعلقة بالتجربة والخبرة، وعليه فالتجربة هي مصدر معرفة العلاقات وتلويدها.

¹. دافيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 51.

². أيوب أبو دية، المرجع السابق، ص 234.

³. دافيد هيوم، المصدر نفسه، ص 52.

⁴. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وبهذا فالعقل يعتبر مجرد ترتيب لتلك الأفكار التي تصدر عن المشاعر وبهذا يقول هيوم " على افتراض تامة كمال ملكاته العقلية، لم يكن بإمكانه أن يستدل من سيولة الماء وشفافيته على أنه قد يخنقه ولا من ضوء النار وحرارتها على أنها قد تحرقه، فليس ثمة من شيء يكشف بخصائصه التي تظهر للحواس لا عن الأسباب التي تحدثه ولا عن المسببات التي يتولد منها"¹.

المعنى من هذا أن العقل لولا وجود الحواس لما عرف أن ذلك الشيء يصدر عنه ذلك الفعل، لأن العقل من دون مساعدة الخبرة لا يمكن له أن يطلع بخلصة بصدد وجود أي واقعة ما، وهنا هيوم ضد العقلانية التي ترجع كل شيء إلى التفكير والذهن العقلي، وبهذا فإن فكرة العلية عند هيوم قائمة على أسس منها الاتصال وكذا الأسبقية والارتباط الضروري، فالاتصال يقصد به أن الأسباب والمسببات متصلة بعضها ببعض، وأن الشيء لا يمكن أن يحصل في زمان أو مكان يبعد عن زمانه ومكانه بالفعل، ويؤكد هيوم أنه لا يرى وجود ضرورة أن تكون العلة سابقة على معلولها بل يراها أمراً يحتمل الجدل، ومع تسليمه أن التجربة في معظم الأحيان تنتصر لأسبقية العلة على المعلول حيث يتبين هذا من خلال موقف هيوم حول العلية " يتساءل هيوم من أن جاءت هذه الفكرة التي أضافها الإنسان إلى الإحساسات المتفرقة ... فتطوع عليها الإنسان برابطة السببية، وسمى حادثة ما علة، وسمى الأخرى معلولاً والحقيقة أنهما حادثتان تتابعتا لا أكثر"².

المقصود من هذا أن فكرة السببية متضمنة العلة، وكذا المعلول السبب والمسبب، وأن حدوثها مجرد تتابع لا أكثر، وبهذا يعتبر هيوم أول من نقل فكرة العلة من معانيها الأرسطية إلى معنى التتابع المجرد بين السبب والمسبب، أي التتابع الذي لا يعني شيئاً أكثر من أن السبب سابق لمسببه فيما دلت عليه التجربة.

يتضح هذا أكثر من خلال تأكيد هيوم على العلة والمعلول حيث " لا يجب أن نكتفي بالقول أن فكرة العلة والمعلول تولد من المستلزم للموضوعات، لكن علينا أن نؤكد أنها شبيهة بفكرة تلك الموضوعات"³.

هنا المقصود أن العلاقة بين العلة والمعلول ضرورية موجودة في الذات إلا إذا كانت توصف بالتأمل والحس و كذا بالتجربة الحسية، لأن التجربة لا تفرض شيئاً آخر ولا شيء يسبقها.

¹. دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 52.

². زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة، ص 239.

³. جيل دولوز: التجريبية والذاتية " بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم"، ت. أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

ط1، 1999، ص 16.

كما انه يؤكد على أن الفلاسفة الذاتيون يؤمنون بما هو ذهني وعقلي من خلال أنهم يرون هناك رابطة ضرورية بين العلة والمعلول حيث يرى " فالعقليون يرون أن هناك ارتباطات وثيقة بين الأشياء، وهي ارتباطات يمكن معرفتها، أما هيوم ينكر أن تكون هناك ارتباطات كهذه أو على الأصح حتى ولو كانت موجودة، فمن المؤكد أننا لا نستطيع معرفتها، وكل ما نعرفه هو تعاقبات للأفكار"¹.

المقصود من هذا أن العقلانيون يرون أن الرابطة بين العلة والمعلول سمة كامنة في طبيعة الأشياء، لكن هيوم يرى على عكس من ذلك فهو ينكر وجود تلك الرابطة إلا أنه يرى تلك الرابطة وإن وجدت فإيجادها مجرد تتابع وتكرار لتلك الانطباعات والأفكار، وأنكر بهذا الضرورة التي بين العلة والمعلول، وقرر أنها ليست ضرورة منطقية، ولكنها ضرورة تجريبية فحسب، تعتمد على تتابع عادي قائم على المشاهدة والملاحظة الحسية.

ويؤكد هذا من خلال أن " تصور العلية ليس في الحقيقة إلا تتابع العادة ومنشأ في المخيلة ... فإذا ما رأينا فكرة تتابع فكرة أخرى، فإننا نصطلح على اعتبار الأولى علة، وتنتظر أن نرى الأخرى تتبعها"².

يعني هذا أن مبدأ العلة في نظر هيوم ما هو إلا تكرار وتتابع لتلك الظواهر أو الحوادث، وفي هذه الحالة هناك ما يسمى علة وهناك ما سمي معلولا، وإذ تكرر تلازم الحدوث وتكررت ملاحظتنا لهذا التلازم (أي المشاهدة المستمرة) تكونت لنا هذه العادة العقلية التي مصدرها الملاحظة والمشاهدة.

وعن أصل العلية ومن أين مستسقاة يقول هيوم " يجب علينا النظر في فكرة السببية ... دعونا نلقي أعيننا على أي من جسمين، والتي نسميها السبب والنتيجة، وتشغلها جميع الأطراف، وذلك لتجد أن الانطباع الذي ينتج فكرة عن هذه نتيجة مذهلة، وأني يجب أن لا ابحث في أي من الصفات معينة من الكائنات يندرج تحت مسمى سبب أو تأثير"³.

المقصود من هذا أن مبدأ العلية موجود في أنفسنا، هذا أننا ندرك أنفسنا ككائنات قادرة على الإرادة، حيث تعتبر نقطة البداية الضرورية لكل معرفة، وتعتبر العلية تصورها أساس في خبرتنا لا يمكن الاستغناء عنه.

¹. برتراند راسل، المرجع السابق، ص 100.

². علي سامي النشار: مناهج البحث عن مفكري الإسلام" واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1984، ص 164.

³David Hume : **A treatise**, p45.

ويواصل القول عن فكرة العلية ومن أين مصدرها " أجد في المقام الأول ... أن لا شيء يمكن أن يعمل في أي مكان أو زمان ... قد تبدو الأشياء البعيدة مع أن في بعض الأحيان الإنتاج لها هو سلسلة من الأسباب التي هي بعضها البعض، فإنها توجد عادة عند الفحص متلاصقة فيما بينها، ومازلنا نفترض أنه في الوجود، ولذلك قد تعتبر العلاقة من التواصل أمر ضروري للسببية"¹.

الملاحظ من هذا على أن العلة مرتبطة بكل ما هو موجود في هذا الكون وتعتبر رابطة ضرورية، كما يؤكد هيوم في هذا أن أي حادث لا يعمل في نفس المكان و الزمان، ويوضح على أن مبدأ العلية مرتبط بوجود تعاقب منتظم في الطبيعة، لأن لولا وجود هذا التعاقب والارتباط لما وجدت فكرة العلية، لأن هذه الفكرة تبحث عن العلة في كل ما يحيط بها وما يهمها وغالبا ما يكون البحث عن العلة الأكثر مباشرة ، ولكنه يكون أحيانا عن العلة البعيدة وأخيرا عن العلة النهائية التي هي أيضا علة أصلية، وأن كل موجود له بالضرورة علة، وهذا يدعونا إلى التعمق بالأشياء وتأسيس العلة ومن خلال هذا نصل إلى ما سمي بالأصل عن طريق ذلك، ويتضح هذا من خلال " لقد شهد الفكر البشري التصوري هذا البحث عن العلة في جميع مراحلها، وقبل أن يصل إلى مرحلة اقتصاره على تأصيل الأحكام، هذا الجهد في البحث عن العلة أن كلما نتعمق بالأشياء نجد أنفسنا في الطريق إلى الأصل"².

هذا يعني أن مبدأ العلة البحث فيها يعتبر بمثابة معرفة التنبيه إلى العلة، وكذا إلى الأصول، هذا أن فكرة العلة تعتبر بأنه لا شيء موجود بدون علة.

ويتحدث هيوم عن العلاقات في الأصل حيث يقول " ... العلاقة الثانية وسوف نلاحظ بأنها ضرورية للأسباب والآثار، وليس ذلك عالميا من شأنه الجدل، أن الأولوية من الوقت في القضية قبل تأثير تسبق تأثيره على الإطلاق الضرورة... لكن إلى جانب هذه التجربة في معظم المواقف يبدو متناقضا، وبهذا نحن في إقامة علاقة الأولوية من الاستدلال سواء في الفلسفة الطبيعية أو المنطق"³.

الملاحظ من هذا أن الضرورة تحكم في العلاقة بين السبب والأثر كما أن مبدأ العلة من خلال هذا يتضح أنه يحتوي على جميع المجالات فهيوم تناولها في مجالات الإنتاج حيث هدفه هو إنتاج آخر حقيقي تابع من الإنتاج

¹David Hume: **A treatise**, p45.

².مارتن هيدغر: مبدأ العلة، ت د. نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات، دط، دس، ص 5.

³David Hume: **A treatise**, p45.

الأول، وبهذا فهو قد ربطها بالاستدلال، وهذا أن لكل سبب ما يشاركه، لأن مبدأ العلة ليس الفردية للغاية، وإنما بمساعدة المبدأ الآخر.

من خلال هذا نستنتج على أن العلية تعتبر أحد الشروط التحريية التي تسمح بتربط الأفكار، هذا أن علاقة السببية ليست حقيقة موضوعية بل تتشكل في الذات نتيجة الانفعالات والمشاعر المرتبطة بالعوامل النفسية، وهذا كله ينبع من تجربة التكرار و العادة، وبهذا فالتجربة ما هي إلا تعاقب وتتابع بعض الظواهر.

نستخلص من خلال هذا أن هيوم:

- لم ينكر مبدأ العلية، بل رفض أن تكون العلية مبدأ فطري أو تصور قبلي في العقل الإنساني.
- مبدأ العلية هو مبدأ يستمد قوته من التجربة والتكرار.
- اعتبر أن مبدأ العلية ليس شبيه لا بمبادئ المنطق ولا الرياضيات.
- يرى دافيد هيوم أن مبدأ العلية موجود في الذات الإنسانية، وليس في الأشياء الخارجية.
- أكد على أن البحث عن الدوافع الأولى للسلوك البشري يجب الانتهاء بها إلى الإحساس والعاطفة.
- يرى بأن العقل لا يمكن له تشكيل دافع سلوكي، لأن العقل ما هو إلا ملكة منظمة لما يتلقاه الإدراك من انطباعات على المستوى المعرفي.
- يرى هيوم أن مبدأ العلية ما هو إلا تتابع وتكرار للحوادث، وهذا ما يسمى بالعادة.
- توصل إلى أن سبب حضور الأفكار في الذهن تعتبر مجرد عادة عقلية.
- كما أنه يؤكد بأن العلاقة التي تكمن بين العلة والمعلول هي وليدة الفكر.
- اعتبر بأن مبدأ العلية مرتبط بعوامل نفسية، وبهذا تظهر لنا انتظام في شكل تعاقب أو تتابع بعض الظواهر مثل الثلج الذي يستدعي البرودة، وبهذا يمكن القول أن فكرة السببية (العلية) تنبع عندئذ من العادة.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: موقف هيوم من مبدأ العلية

المبحث الأول: نقد هيوم للعلية

أ- من حيث الجانب العقلي

ب- من حيث الجانب التجريبي

المبحث الثاني: المشكلة المنطقية للاستقراء عند هيوم

المبحث الثالث: العادة وتداعي المعاني في تفسير

الظواهر عند دفيد هيوم

المبحث الرابع: نقد محمد باقر الصدر للعلية عند

هيوم

الفصل الثالث: موقف هيوم من مبدأ العلية.

لم يرق المذهب التجريبي في نظر العقلانيين من الفلاسفة كديكارت مثلا الذي هاجمه الفلاسفة التجريبيين من خلال أنه يسلم بوجود أفكار فطرية موروثية ومبادئ عقلية بديهية، حيث رد هيوم وهو من أصحاب النزعة التجريبية المعرفة في كل صورها إلى التجربة مع وجود خلاف في تفسيرها، وبتطور المذهب التجريبي اتخذ صورا شتى كلها على اتفاق في رفض المعرفة الأولية السابقة على كل تجربة، لكن ومع ذلك إلا أن هيوم موقفه من العلية كان من خلال نقده لهذا سواء من الجانب العقلي أو من الجانب التجريبي، كما صرح بوجود مشكلة في هذا والتي سميت بمشكلة هيوم " وهي مشكلة الاستقراء".

الذي يؤكد على أن الوصول إلى نتائج يجب أن تكون ذات طابع نفسي مستمدة من الدليل السيكولوجي، فالضرورة التي تحدث عنها العقليون في نظر هيوم أن مرجعها إلى تداعي المعاني الذي يقوم التزامن والاقتران بين الحوادث والظواهر، وكل هذا مرتبط بمبدأ العادة، الذي يقر به هيوم و الذي يرى بأن تكرار الحوادث يرسخ في ذهن الإنسان وهذه ما هي إلا عادة ذهنية في عقل الإنسان.

المبحث الأول: نقد هيوم للعية

من بين الدراسات التي جعلت هيوم من الفلاسفة الأشهر هو نقده للسببية ، الآن هذا النقد جاء بعد أن شعر بالنزعة التجريبية معرضة للشك، لأن هيوم من خلال دراسته لذا المبدأ لم يجد ما كان يبحث عنه هو إثبات إذا كانت هناك علاقة ضرورية التي نادى بها أصحاب النزعة العقلية بين السبب والأثر، لكن من قبل التجربة كان بحثه هو ما إذا كانت هناك معرفة تحمل في طياتها انطباعات عن الضرورة، وبهذا من خلال بحثنا الاستيمولوجي سنلقي نظرة هيوم على هجومه لتصور العلية.

وعليه فالسؤال المطروح: ما هو الدافع الذي جعل هيوم ينكر التصور العقلي وكذا التجريبي لمبدأ العلية ؟ وعليه يمكن الفصل في هذا من خلال جانبين هما:

أ- من حيث الجانب العقلي:

ينكر دفيد هيوم أن يكون العقل طريق للمعرفة حيث يقول " رغم ما نفترض أن ملكاته العقلية قد كانت لدى البداية على أتم كمال، أن يستنتج من سيولة الماء وشفافيته أنه يمكن أن يشرق به ويغض، ومن حرارة النار أنها يمكن أن تحرقه"¹.

المقصود من هذا لا يمكن أن تدرك عقليا أن هذه العلية ترتبط بالمعلول، هذا أن بالعقل لا يمكن للإنسان إمكانية المعرفة الكلية، فهو يرى بأن العقل لا يمكنه الكشف لا عن الأسباب ولا عن الآثار.

ويواصل قوله في هذا " أن الأسباب والمفاعيل لا تكشف بالعقل ... فلا أحد يتخيل أن انفجار البارود، أو جاذبية حجر المغناطيس يمكنها أن يكشف بواسطة حجج قبلية"².

وبهذا يمكن أن العلة والمعلول لا يمكن الاستدلال بها عقليا، فهيوم بهذا ينكر أن يكون العقل كاشفا لتلك العلاقة، فهو يرفض العقل مصدر للمعرفة، فهيوم لا يؤمن بالمبادئ العقلية للسببية، كما آمن بها التفسير الأرسطي للاستقراء، وبهذا فإن دفيد هيوم يؤكد على أن علاقة العلية لا تنشأ عن التفكير العقلي الخالص ويوضح ذلك من خلال هذا أن " ... فمبدأ العلية لا يلزم من مبدأ عدم التناقض، ولا تناقض في تصور بداية شيء دون رده إلى علة"³.

المقصود من هذا أ، مبدأ عدم التناقض لا يمكن له أن يفسر أو يبرر العلاقة الموجودة بين العلة والمعلول، هذا أن معنى العلة مغاير عن معنى المعلول، كما يستحيل العلم مبدئيا معنى المعلول من العلة وفي هذا الطرح يقول هيوم " ... ومن الواضح أن هذا الاستنباط لا بد له أن يكون تحكما خالصا، فمن المحال أن يتمكن الذهن أبدا من أن يجد المفعول في هذه الحال التي افترضنا، مهما دق لذلك الفحص والتنقيب، ذلك أن المفعول مختلف عن السبب اختلافا كاملا"⁴.

المعنى من هذا أن العقل لا يمكن له أن يؤكد ويبرر عن تلك العلاقة، كما أن هيوم يؤكد على أن الأثر مختلف عن السبب، ولا توجد هناك علاقة بينهما ما دام هناك اختلاف في المعنى، لأن هيوم ما دام يرفض على وجود أفكار فطرية، وعليه لا يؤمن بالعقل كما يؤكد على أن العقل لا يمكن باستطاعته أن يبرر العلة والمعلول والعلاقة

¹. دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 54.

². المصدر نفسه، صفحة نفسها.

³. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ط5، دس، ص 175.

⁴. دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 55.

بينهما، هذا أن العقل لا يحرك إلى الفعل، فالفلاسفة الأرسطيون العقليون يرون أن معرفة الإنسان بأي واقعة أو ظاهرة فهي معرفة عقلية بطبيعتها، لكن هيوم على عكس من ذلك حيث يرى أن معرفة الإنسان بما يمر به من حوادث، وتتابع للظواهر ليست معرفة عقلية. فكل ما سيهدفه هيوم هو " الاستدلال العقلي على أن المعرفة بتلك العلاقات الخاصة ليست عقلية"¹.

المقصود من هذا أن الاستدلال العقلي للمعرفة لا يكون مرتبط بمبدأ قبلي، ولا يتضمن في طياتها الطابع العقلي القبلي، فمفهوم ينكر أن تكون المعرفة العقلية، لأنه يرفض وجود أفكار فطرية (قبلية) لأن هيوم يؤمن بما هو حسّي وتجريبي، بل كل معرفة مستمدة من الخبرة، وبهذا فإن تبرير العلة والمعلول ليس من نبيل العقل، لأن العقل لا يستطيع أن يكون على الإطلاق دافعا لأي فعل من أفعال الإرادة، لأن هيوم يرى أن العقل ما هو إلا عبد للعاطفة.

ويقول هيوم في هذا "... إن كل استدلالنا القبلي ستكون عاجزة أن تكشف لنا عن أساس هذا التفضيل"².

المقصود من هذا على أن الاستدلال القبلي عاجز عن معرفة العلة والمعلول، فهيوم يؤكد على أن العقل عاجز عن الكشف عن العلاقة الموجودة بين السبب والمفعول، وبهذا ينكر تماما الدور العقلي، ويعطي الأسبقية للخبرة والتجربة.

ومع انكار هيوم للعقل أنه مجرد ادراكات يقول " وهكذا فإن مسار الحجة يقودنا إلى الاستنتاج أنه بما أن النذر والفضيلة لا يمكن اكتشافهما فقط سبب السبب، أو مقارنة الأفكار، يجب أن يكون عن طريق بعض الانطباع أو المشاعر، وبهذا التمييز بين الخير الأخلاقي و الشر"³.

هنا يمكن القول على أن، العقل لا يمكنه معرفة الواقع الخارجي، كما أنه مجرد إدراكات لا غير، وبهذا فهو الدور الذي يقوم به هو الانتظام أي انتظام تلك الأفكار التي يتلقاه من الانطباعات و الانفعالات، وبهذا يعتبر

¹. محمد باقر الصدر: الأسس المنطقية للاستقراء، دار المعارف للطبوعات، بيروت، لبنان، ط5، 1986، ص 102.

². دفيد هيوم،: تحقيق في الذهن البشري، ص 56.

³ David Hume: A treatise, p 245.

العقل قاصر على معرفة الأشياء وكذا معرفة السبب والمسبب، وبهذا فهو يؤكد على أن العاطفة هي التي تميز بين الخير والشر، وليس للعقل دور في هذا، لأنه يعتبر بأن العقل استحالته تبرير العلاقات.

ويواصل القول " لقد اعترضت على النظام الذي يحدد تدابير عقلانية أبدية من الصواب والخطأ، ذلك من المستحيل أن في أعمال مخلوقات معقولة أي علاقات والتي يتم العثور عليها في الأشياء الخارجية، وبالتالي إذا كانت الأخلاق دائما حضرت هذه العلاقات ... في مثل هذا يتم الاعتراض على الحاضر النظام، أنه إذا الفضيلة والنائب يكون محددًا من خلال المتعة و الألم، وهذه الصفات يجب في كل الحالة أن تنشأ من الأحاسيس"¹.

المقصود من هذا أن الحس هو أساس المعرفة، وبهذا فهو يرفض أن يكون العقل معارف من دون التجربة.

ونلاحظ في موقف هيوم هذا أن " الحاجة إلى التمييز بصورة جدية بين مبدأ العلية وعلاقات العلية القائمة بين الأشياء، ونريد بمبدأ العلية المبدأ القائل أن لكل حادثة سببا، ونريد بعلاقات العلية العلاقة القائمة بين الحرارة والتمدد"².

المعنى من هذا أن لكل حادثة لها مفعول أو جدها، لكن ليس تفسيرها من نبيل العقل وحده، لأن وصول إلى معرفة بالعقل وحده تكون ليس لها فائدة، لأن لكل انطباع يكون مصحوب تفكيره، كما أنه يؤكد تلك العلاقات الخاصة بين الحرارة والتمدد يدركها العقل بصورة قبلية.

ويواصل القول " فإن الاتجاه العقلي على الصعيد الفلسفي الذي يسبغ على العلية طابعا عقليا قبليا، يريد القول أن مبدأ العلية من القضايا التي يدركها العقل بصورة قبلية مستقلة عن التجربة"³.

الملاحظ من هذا على أن العقل لا يمكنه أن يكون معارف بمعزل عن التجربة، وهذا الأمر يعتبر عند هيوم مستحيل، هذا أن أصحاب النزعة التجريبية يؤمنون بما هو حسي، فلا شيء يوجد في الذهن ما لم يوجد من قبل في الواقع، وبهذا فإن مبدأ العلية لا يمكن استنباطه من مبدأ عدم التناقض، إذ لا يوجد أي تناقض منطقي في افتراض حادثة بدون سبب، لأن مفهوم الحادثة لا يستطن ذاتيا فكرة السبب.

¹. David Hume: A treatise, 246.

². محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 102.

³. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب- من حيث الجانب التجريبي:

يعتبر هيوم أحد الفلاسفة الذين دافعوا عن النزعة التجريبية إلا أن هذا لم يمنع هيوم من توجيه بعض الانتقادات للتصور التجريبي للعلية، حيث أكد " أن علاقات العلية لا يمكن الاستدلال عليها بالتجربة، وعجز الخبرة الحسية عن إثباتها لأن معلوماتنا عن العالم الخارجي التي نستمدّها من التجربة والخبرة والحسية، تنشأ من الانطباعات عن العالم الخارجي، لا نجد فيها انطباعاً عن العلية بالمعنى الذي يشتمل على الضرورة وحتمية الارتباط بين الحادثتين "1.

هذا يعني أن التجربة لا يمكنها ولا باستطاعتها أن تبرر وجود علاقة ضرورية بين العلة والمعلول، لأن الرابطة الضرورية بين السبب والمسببة تكمن فقط في الاطراد والتتابع، هذا أن كل ما نراه في العالم الخارجي هو أن النتيجة تتبع سببها، وتكرار الحوادث لا يعني أنها ستكون كذلك في المستقبل، لأن هذا كله سمي مجرد عادة ذهنية بمعنى تعود الذهن عن ملاحظة تلك الحوادث بطريقة متكررة.

فهيوم يفسر هذا من خلال طرح مثال على كره البلياردو وهذا من خلال " إننا عندما نقوم بملاحظات لا عدد لها لكيفية تأثير كرات البلياردو، إحداها على الأخرى بقوى ميكانيكية، فقد نعرف من خلال هذه الخبرة كيف سيكون فعل الكرات في المستقبل، وبمكنا أن نكشف قوانين العلاقات السببية، مثلما يحدث على سطح مستو عندما الكرة (A) التي سرعتها كذا وكتلتها كذا ترتطم بالكرة (B) التي سرعتها كذا وكتلتها كذا، فقوانين العلاقة بين السبب والنتيجة تنبؤنا عن النتيجة التي لا بد من أن تقع إذا حدث سبب ما "2.

هذا يؤكد على أن عدم إمكانية الحصول على معرفة مستمدة من انطباعات حسية بما هي الضرورة في العلاقة بين السبب والنتيجة، فسيظل بإمكاننا أن تكسب معرفة هذه الضرورة عن طريق الاستقراء.

لكن السؤال الذي يطرح حسب هيوم هو " فما هي الخبرة التي تقول لنا إن تلك هي الضرورة؟ هل نستطيع أن نرى الضرورة؟ وكيف نستطيع أن نرى؟ كومضة زهرية اللون؟ من الواضح أن الأمر ليس كذلك، هل نستطيع

1. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 105.

2. غنار سكيريك ونلز غيلجي: تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن 20، ت. حيدر حاج إسماعيل، المنطقة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2010، ص 493.

أن نسمع الضرورة؟ مثلاً، كصوت ذي طنين منخفض؟ طبعاً، لا، كذلك ليست الضرورة شيئاً يمكن نشعر به أو نشم رائحته أو أن نحصل بأي طريقة أخرى على انطباعات حسية عنه¹.

المقصود من هذا أن المعرفة لا يمكن معرفتها بالتجربة، وكذا أن الضرورة بين العلة والمعلول لا يمكن تبريرها حسياً، وعليه فهيوم ينكر التبرير التجريبي للعلية.

نستنتج من خلال هذا أن هيوم من خلال نقده للمبدأ العلة، قد رفض التبرير العقلي وكذا التبرير التجريبي بالرغم من أنه ذو نزعة تجريبية، لكن رفضه التبرير التجريبي من أجل إثبات الضرورة، كما يؤكد على العجز عن معرفة الضرورة.

¹ غنار سكيريك ونلز غيلجي، المرجع السابق، ص 494.

المبحث الثاني: المشكلة المنطقية للاستقراء عند هيوم

ان أول من وجد في الاستقراء مشكلة هو **دفيد هيوم**، الذي يرجع إليه الفضل في نقد المعرفة عامة والاستقراء خاصة، ويكفي فقط إدراك الخطوة التي شاع بها والتي عرفت بفضيحة الفلسفة، حيث كان يهاجم ضد كل من العقلانيين وكذا التجريبيين، وأي بأن الفلسفة عاجزة على أن نجد حلا للمشكلة الاستقرائية، حيث عرفت هذه المشكلة بمشكلة **هيوم** وهذه التسمية أطلقها كارل بوبر باعتبار أن **هيوم** أول من انشغل بها وصاغها صياغة محددة واضحة، **فهيوم** وجد الاستقراء كمنهج العلم، وما يتمتع به من ثقة، ليس له ما يبرره، لا من الوجهة المنطقية ولا الوجهة التجريبية، وعادة يؤول الاستقراء على النحو التالي " إذا لاحظنا عدة حالات من " أ " في ظروف متنوعة وإذا وقفنا على أن جميع تلك الحالات التي تمت ملاحظتها تحمل الخاصية " ب " دون استثناء، فينبغي إذن أن تحمل جميع " أ " الخاصية " ب " ¹ وهو المبدأ المؤسس للعلم عند فلاسفة الذين يؤمنون بهذا المبدأ، **فهيوم** ينفي صفة الضرورة واليقين كما فسر الاستدلال الاستقرائي بوصفه عادة ذهنية لا غير، وشك في قيمة القضية الاستقرائية من الناحية الموضوعية.

وبهذا يمكن طرح التساؤل التالي:

- هل مشكلة الاستقراء عند **دفيد هيوم** تعتمد على الملاحظة والتجربة دون الاعتماد على أحكام

مسبقة؟

- هل الاستقراء عند **هيوم** كان تفسيره سيكولوجي بحث لا غير؟

- كيف كان تبرير **هيوم** لمشكلة الاستقراء؟

بعد أن انتهى **هيوم** من مناقشة تصور العلية، وجد أنه من الضروري أن ينتقل إلى البحث في مشكلة أخرى تعتبر من أهم المشكلات وهي مشكلة الاستقراء والتي تسمى بمبدأ **اطراد الحوادث في الطبيعة** حيث يقول " يمكن تقسيم جميع أهداف العقل البشري في نوعين، علاقات الأفكار، ومسائل الوقائع، ومن النوع الأول هي علوم الهندسة والجبر ... فكل تأكيد هو إما حدسي أو توضيحي، المؤكد أن مربع الوتيرة يساوي مربع الجانبين ...

¹. شالمرز ألان: نظريات العلم، ت. الحسين وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 27.

ويمكن اكتشاف المقترحات من هذا النوع من خلال مجرد تشغيل الذهن ... أما مسائل التحقق منها بنفس الطريقة ... العكس من كل مسألة حقيقية لا يزال ممكنا، لأنه لا يمكن أبدا أن ينطوي على التناقض "1.

المقصود من هذا أن هيوم من خلال تصوره لهذه المشكلة من أجل إيجاد لها حل ميز بين قضايا الرياضيات المتمثلة في الحساب وغيرها، وكذا بين قضايا التجريبية المتأصلة في الواقع، هذا أن قضايا الرياضية يكون صدقها مطلقا لأنها تعتمد على المنطق واليقين وكذا الأدلة، أما قضايا الواقع المتمثل في الواقع التجريبي أنها كشفت في عملية التحقيق يكون القضية فيها صادقة صدقا تجريبيا، ويمكن وضع المشكلة كما تصورها على النحو التالي " يميز هيوم تمييزا حاسما بين القضايا المنطقية والرياضية من جهة وقضايا الواقع من جهة أخرى "2.

من الملاحظ أن هيوم في تمييزه هذا يرى بأن الاستقراء أو مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة أن استدلالنا لأي ظاهرة يكون استقرايا بمعنى أن ذلك سوف يحدث دائما ومثال على هذا " أي عندما ترتطم كرة تتدحرج على سطح مستو بكرة أخرى ساكنة ولها الكتلة ذاتها، فإننا نلاحظ أن الكرة المتحركة تصير ساكنة، وأن الكرة التي كانت ساكنة تبدأ بالحركة "3.

هذا يعني أن الحدث في تكرار وتتابع للظاهرة من قبل المبدأ الاستقرائي من خلال الخبرة لأن جميع الاستدلالات المتعلقة بالواقع قائمة على العلاقة بين السبب والمفعول.

فاعتبر هيوم القسم الأول من القضايا صادقة " صدق مطلقا لا استثناء فيه هو أن نقيضها مستحيل أو أنه لا يتصور نقائص تلك القضايا "4.

هذا يعني أن القضية المنطقية أو الرياضية بما أن صدقها مطلق فهذا يجدر بنا الإشارة بأنها مستنبطة استنباطا صحيح من مقدماتها، وبهذا تكون صادقة وغير كاذبة، لأنها قضايا يقينية حدسية، برهانها قياسي، أما فيما يخص القضية التجريبية يقول هيوم " فأن الشمس لن تشرق غدا قضية لا تقل معقولة ولا تقتضي من التناقض أكثر مما

1. David Hume : **An Enquiry Concerning Human Understanding**, pp 18 .19.

2. محمود فهمي زيدان: **الاستقراء والمنهج العلمي**، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، دط، 1977، ص 110.

3. غنار سكريبك و نلز غيلجي، المرجع السابق، ص 495.

4. محمود فهمي زيدان، المرجع نفسه، ص 111.

يقتضيه الإقرار بأنها ستشرق غدا، ولا جدوى إذا في أن نحاول البرهنة على خطئها، أما لو كانت برهانيا خاطئة، فإنها ستجر إلى تناقض ولن تكون للذهن قبل بتصورها بتميز¹.

المقصود من هذا أن القضية التجريبية يمكن إنكارها دون تناقض، هذا أن قضية الشمس سوف لا تشرق لسبب أقل قبولا لدى العقل، لأن اعتقادنا لهذه القضية راجع إلى العادة التي تكونت لدينا من تكرار الشروق السابق الذي لاحظناه، وجعلنا نتوقع شروقها في الغد، وبهذا يؤكد على الاستدلال الاستقرائي في تكرار الحادثة أو الظاهرة، حيث " تتمثل أمور " الواقع " في العلوم الطبيعية، لذلك يكون حلمنا على صدق قضايا الواقع متصل بالخبرة الحسية، وتتصف معرفتنا بأنها واقعية لارتباطها بأمور الواقع، وأنها احتمالية، قد تصدق وقد تكذب².

هذا يعني أن معيار هيوم لتمييزه من القضية التجريبية عن القضية الرياضية هو أنه يمكن تصور القضية التجريبية من نقيضها أي أن نقيضها ليس مستحيلا، أو أن صدقها وكذبها يستويان في الإمكان، هذا أن القضايا الرياضية لا يمكن أن تستدل عن طبيعة أمور الواقع ما كانت إلى الخبرة الحسية.

ولقد تساءل هيوم عن المبرر الذي يؤدي بالاعتقاد بأن الحاضر والماضي يشبهان المستقبل بالنسبة يمثل هذا النوع من القضايا المتعلقة بالواقع فيقول " ... جميع الاستدلالات المستمدة من الخبرة تفترض كأساس لها، أن المستقبل سيسببه الماضي وأن القدرات المتشابهة ستكون مترافقة مع خاصيات حسية متشابهة، فإذا كان ثمة من شك في أن مجرى الطبيعة يمكن أن يتبدل وأن الماضي لا يمكن أن يكون قاعدة للمستقبل، فإن جميع الخبرات تصير بلا جدوى ولا يمكن أن تولد استدلالا³.

المقصود من هذا أن عند اعتقاد الشخص أن الماضي والحاضر يشبهان المستقبل هذا راجع إلى الخبرة والملاحظة، لأن التكرار والتعود لحدوث واقعة ما هو مجرد عادة عقلية لأن مثال " الشمس ستشرق غدا " أن المبرر للاعتقاد هو تكرر الشروق لمدة طويلة أي تتوقع الحادثة في الغد قياسا على الماضي، وبهذا فإن التعود على شيء ما سواء في الماضي أو الحاضر يعتبر مماثل في المستقبل أي شبيه تلك الشيء الذي حدث في الماضي والحاضر.

¹ دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 52.

² إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2001، ص 333.

³ دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 64.

لكن هذا كله قائم على المبرر النفسي أي اعتقاد نفسي من خلال أنه ليس هناك من دليل منطقي لهذا التفسير ولكن "يجيب هيوم، إنما هو مبرر سيكولوجي، يمكن اكتشافه بتحليل موسع لنفس علاقة العلة والمعلول التي كانت تشكل الأساس لاستدلالاتنا الخاصة بأمور الواقع"¹.

هذا يعني التشابه يكون مبرر نفسي أي الحالة الشعورية التي يحس أو يمر بها الإنسان، وأن التغيرات التي تحدث عبر الزمن طبيعتها الخفية يمكن أن تتبدل لكن خاصياتها الحسية لا تتبدل، مثل الطفل الذي يرى مرارا وتكرارا النار ويشعر بأنه ستحرقه، فهذا يتولد لديه اعتقاد سيكولوجي، وبهذا فهيوم لا يريد أن ينكر ذلك الاعتقاد بأن نتوقع المستقبل شبيهه بالحاضر والماضي.

ومن أسباب الاعتقاد وتفسير هيوم لهذا يقول " ... أنه عندما يصبح أي انطباع حاضرا لنا، فإنه لا ينقل العقل إلى الأفكار التي تتعلق بها، ولكن ينقل لهم حصة من قوتها وحماسها، فجميع عمليات العقل تعتمد بقدر كبير على التصرف فيها، عندما تقوم بها، فإن العمل يكون دائما أكثر أو أقل، والاهتمام يكون أكثر أو أقل حيوية"².

المقصود من هذا أن الدليل الاستقرائي مرتبط بما يعتقد الإنسان، هذا أن الاعتقاد حسب هيوم فهو أكثر قوة وحيوية من التصور لأن الفرق بينهما يكون في الإدراك، هذا أن الاعتقاد يعتبر مرسوخ في ذهننا، لأن فكرتنا عن الشيء مثل " أن الشمس ستشرق " مجدية خافتة ليس فيها قوة وحيوية فهي مجرد تصور، وإذا كانت زاخرة بالحيوية والقوة فهي اعتقاد، فهيوم عني مناقشته لمشكلة الاستقراء لم يكن هدفا أن يتحدث عن الاعتقاد وإنما الصدق الكلي للقضية التجريبية.

وبواصل القول " إن تأثير التشابه في تنشيط فكرة شائعة جدا، وكما في كل حالة تشابه وانطباع خارجي يجب أن نتفق أنه يتم توفيرها بشكل كبير مع التجارب... قد نضيف قوة إلى هذه التجارب من قبل الآخرين... فضلا عن التشابه، أن المسافة تقلل من قوة كل فكرة... وأن أهداف العقل هي الأفكار بغض النظر عن وجود، فالانتقال وحده ليس قادر على إعطاء حيوية متفوقة على أي من الأفكار، ولا يمكن لأحد أن شك في أن السببية لها نفس تأثير علاقات التشابه الأخرى"³.

¹. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 90.

².David Hume: A treatise, p57.

³.Ibid, 58.

المعنى من هذا أن الاعتقاد فسر على أساس ما تزخر به الفكرة من حيوية لأن هذه الحيوية تستمدتها الفكرة من الانطباع مباشرة، هذا أن الإنسان إزاء قضية تتصل بالوجود الفعلي الواقعي، فلا بد من اتصالها على وجه من الوجوه بانطباعاتها الحسية.

وهكذا يشكل الاطراد نزوعاً نفسياً لدى الإنسان العادي يتوقع تكرار الحدوث في المستقبل على غرار الماضي والحاضر من خلال " إذ لا نعرف كيف تكون مقدمات ذلك البرهان، ولا يمكننا إثبات المبدأ بالخبرة الحسية إذ أن أي محاولة للإثبات هي بمثابة وقوع في الدور أي تسلّم بما تريد إثباته"¹.

الملاحظ من هذا أن موقف هيوم من مبدأ اطراد الحوادث الذي يعتمد عليه الاستدلال الاستقرائي هو أنه لا يمكننا تقديم برهان قبلي عليه، لأن هيوم يرى بأن مبدأ العلية ليس مبدأ فطري وإنما مبدأ مكتسب مستمد من التجربة، وأن الخبرة الإنسانية هي مصدر ذلك المبدأ، والتي تكمن في الانطباعات، كما يؤكد على أن مبدأ اطراد الحوادث إثباته يكون ليس تجريبي أو من قبيل الملاحظة، وهذا ما يوضحه جابر بن حيان من خلال هذا النص أن الاستقراء لا يمكن التثبت منه بواسطة استدلال استقرائي.

لكن الأمر لم يقن عند هذا بالنسبة لهيوم، فانطلاقاً من نزعه التجريبية عدم قبول أي قضية غير مستمدة من التجربة، هذا بمثابة حيرة أمام ظاهرة الاستقراء " فإما أن يكون تجريبياً كاملاً، ولا يقبل من النتائج سوى القضايا التحليلية أو القضايا المستمدة من التجربة، وعندئذ لا يستطيع القيام باستقراء ويتعين عليه أن أية قضية عن المستقبل، وإما أن يقبل الدليل الاستقرائي وعندئذ قد قبل مبدأ لا يمكن استخلاصه من التجربة، وبذلك قد تخلى عن التجريبية وهكذا تنتهي التجريبية الكاملة إلى القول أن معرفة المستقبل مستحيلة"².

المقصود من هذا أن النتائج المتوصل إليها يجب أن تكون نتائج مستمدة كلها من الخبرة والتجربة، وهذا يؤكد على أن الإنسان التجريبي لا بد أن يكون تجريبياً كاملاً.

وبهذا لا يلجأ إلى الدليل الاستقرائي ما دامت نتائجه مستمدة من الملاحظة والتجريب، هذا أن اكتشاف المعرفة عن العلاقات الموضوعية للأشياء الطبيعية لا بد أن تنطوي على تنبؤات موثوق فيها، هذا أن الفيلسوف التجريبي يريد أن يعلم ويتوصل بأن التجربة باستطاعتها أن تمدنا بمعرفة المستقبل إذا أخذت بالدليل الاستقرائي.

¹ محمود فهمي زيدان، المرجع السابق، ص 112.

² هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ت. فؤاد زكرياء، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، القاهرة، دط، 2004، ص 87.

يتساءل هيوم فيقول " فأين يكمن الفرق ساعتها بين الاعتقاد ومثل هذا الخيال؟ إنه لا يتمثل ببساطة في أي فكرة تضاف إلى مثل هذا التوهم فتغلب على تصديقه، أي فكرة يعدمها كل مضمون خيالي ... ، وأن يعتقد تبعاً لذلك ما يشاء، وهذا أمر مناقض لما نجد في تجربتنا اليومية، يمكننا أن نعلم في توهمنا إلى قرن رأس إنسان بحثه فرس، ولكنه ليس بمشيتتنا أن نعتقد أن مثل هذا الحيوان قد وجد أبداً"¹.

لكن هذا يعني أن الاعتقاد مرتبط بالانطباع أما الخيال فهو راجع إلى العملية الذهنية القائمة على التفكير، فالاعتقاد بحدوث الشيء ما دام مرتبط بالانطباع فهذا يؤول إلى أنه يؤول إلى أنه يتميز بالدقة والحيوية والقوة، هذا أن الفرق بين الخيال والاعتقاد يكمن في الإحساس أو في الشعور، فكلما عرض للذاكرة موضوع ما، حمل المخيلة للتو يدافع من قوة العادة، وعليه فالاعتقاد في نظر دفيد هيوم فإنه خالي من الاستدلال بل محتواه التجربة والخبرة.

وعن الاحتمال وعدم قدرته على إثبات النتيجة الاستقرائية يقول هيوم " أضيف أن منطقتنا من البراهين ومن الاحتمالات يكون مختلف كثيراً عن بعضها البعض، ولكن الأنواع السابقة من التفكير غالباً ما يتحلل بشكل غير معقول، ... فإنه عندما " أ " يستمد الاستدلال مباشرة من جسم ما، دون أي سبب وسيط أو تأثير"².

المعنى من هذا على أن الاحتمال مهما يحمل من قوة وحيوية، إلا أنها بمجرد تحليل القضايا فتحليلها غير معقول، لأن كل هذا مرده إلى التكرار.

ويواصل القول " ... يكون الخيال هو سلسلة طويلة من الوسيطيات المتصلة، مهما كانت معصومة قد تكون تقدير من الانطباع الأصلي، أن جميع الأفكار هي عن طريق الانتقال العرفي للخيال... وتأثير أكبر من التجارب العكسية قد تتلقى أكثر حيوية الإقناع من المنطق المحتمل... يجب أن يكون المرء مخيلته قوية جداً وثابتة للحفاظ على الأدلة حتى النهاية"³.

يقصد من هذا أن الخيال ما كان يحمل في طياته قوة، هذا لا يمكن للاحتمال أن نتوصل إلى تأكيد وتبرير القضية الاستقرائية، والتوصل إلى نتائج صحيحة وأكثر يقينية وصادقة، فالخيال ما كان ينطوي على الحيوية وثابت فهذا لا يمكنه الحفاظ على الأدلة إلى حتى النهاية، هذا أن الأدلة تعني الحجج المأخوذة من التجربة، وبهذا فهي لا تقبل الشك فيها، فمثال ذلك " أنه إذا نقشنا على نرد صورة واحدة أو عدداً واحداً من النقاط على أربع جهات

¹. دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 77.

². David Hume: A treatise, p80.

³. Ibid, p80.

فهذا ترجع إلى احتمال أن يشعر الفرد عن صورته الأولى، وعليه فالاعتقاد لتصور موضوع ما هو مجرد توهم للمخيلة.

ويقول هيوم في موضع آخر " إن الحال في احتمال الصدفة هو عين الحال في احتمال الأسباب، فبعض الأسباب كلية الانتظام والتواتر في إحداث مفعول مخصوص ما ... فلا تزال النار محرقة للناس، والماء مغرق لهم "1. نعني بهذا أن جميع الاستدلالات والاستنتاجات لوقوع الحدث هي أن مبدأ الاحتمال في هذا يمكن على أنه لم يكن موجود ما دامت أن الاستدلالات بقيت كما هي لم تتغير ولم تأتي بجديد.

ويواصل القول " ولما كانت العادة تحملنا على أن تنقل الماضي إلى المستقبل واعتبرت لدى تحديدنا لاحتمال الحدث، ومع أننا نعطي الأفضلية لما وجدناه أكثر جريانا، ونعتقد أن ذلك الحدث سوف يوجد... فإن الطقس في كل بلد من البلدان الأوروبية تقريبا، سيكون ثلجيا خلال شهر كانون الثاني، فذلك أرجح من أنه سيكون جميلا هنا يبدو من البديهي إذا، أننا ننقل الماضي إلى المستقبل، سعيا على تحديد المفعول الذي سيحصل عن أي سبب من الأسباب "2.

المعنى من هذا أن احتمال ظاهرة ما تحدث في المستقبل يكون مجرد احتمال، لأن الاستقراء يقف على نتائج مستمدة كلها من التجربة والملاحظة، فالاحتمال يرجع إلى مبدأ الاعتقاد القائم على الاطراد أي النتائج في الأحداث، وكما أنه لا يعرف إلا بالخبرة والمراقبة يعتمد وفقا للنظام السابق.

من خلال هذا نستنتج أن هيوم يرى بأن معرفة المستقبل يجب انتظار ذلك، لأنه يرى بأن إثبات مبدأ اطراد الحوادث لا يمكن عن طريق التجربة بالرغم مما يحمله الماضي والحاضر وما من خبرات، كما يؤكد على أنه لا يمكن إثبات الاحتمال لصدق المبدأ " أ " أو النتائج الاستقرائية دون وقوع في الدور، قد نقول من المحتمل " شروق الشمس غدا " فهذا المثال يميل إلى أن يكون المستقبل شبيها بالماضي، هذا راجع على وجود طريقة لمعرفة ما إذا كان الفرض محتملا وتمثل هذه الطريقة في تأييد المستقبل، وهذا ما سعى إليه هيوم في توضيحاته.

كما أن تفسير الدليل الاستقرائي أدى **دفيد هيوم** إلى تفسيره ذاتيا لا موضوعيا، يقوم على أساس العادة والنزعة النفسية بدلا من أن يقوم على أساس قوانين الواقع الموضوعي، وهذا لا يعني أنه يشكك في نتائج الإستقراء.

1. ديفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص ص 88 - 89.

2. المصدر نفسه، ص ص 89 - 90.

المبحث الثالث: العادة وتداعي المعاني في تفسير الظواهر عند دفيد هيوم

بعد أن انتهى هيوم إلى رفضه وإنكاره لمبدأ العلية كحقيقة موضوعية لا يمكن إثباتها لا عقليا ولا حتى تجريبيا، لجأ إلى تفسير آخر حيث اعتبر أن مبدأ العلية أو السببية هي حقيقة ذاتية ترتبط بالطبيعة الإنسانية وما تطرأ عليها من تتابع وتكرار للحوادث، هذا أن العلية عند هيوم مردها إلى العادة هي قوة اكتسبها الإنسان من جراء تكرار الظواهر والحوادث، ومما دفع هيوم إلى طرح لهذا المبدأ أن إنكاره لمبدأ العلية واعتبره مبدأ لا وجود له وأن الاقتران هو الذي دفع بالبشر إلى تصور العلية.

فدافيد هيوم يرد كل المعارف إلى التجربة والخبرة، وهذا ما جعله إلى اعتقاد عدم وجود معرفة يقينية، كما يرى بأن ما سمي بالعلة شيء كثر بعده تكرار هذا عن طريق تداعي المعاني وهذا الأخير يجعلنا في التفكير في حضور الشيء الثاني، ومن خلال هذا تتكون ما سمي بالعادة العقلية، لأن الذهن دوره هو فقط استقبال وتنظيم و إدراك لتلك الأفكار.

لقد سعى دفيد هيوم من خلال هذا كله إلى المصدر الحقيقي للطبيعة الإنسانية، وهذا يتوصل إليه حسب رأيه من خلال توضيح فكرة تداعي المعاني التي من خلالها نتوصل إلى أن تكرار وتعاقب الحوادث والظواهر ما هو إلا من قبيل العادة، ومن خلال هذا يمكن طرح التساؤل التالي:

- على أي أساس يقوم قانون تداعي المعاني عند دفيد هيوم؟

- كيف فسر هيوم تصوره لمبدأ العلية؟

يعتبر هيوم أن الربط القائم بين السبب والنتيجة هو مجرد افتراض ذهني قائم على تداعي المعاني فيقول " لقد كنا أرجعنا مبادئ الترابط أو التداعي هذه إلى ثلاثة هي التشابه والتماس والعلاقة السببية، وهي الروابط الوحيدة التي تجمع خواطرننا بعضها إلى بعض، ويحدث ذلك التسلسل المنتظم من التفكير أو الخطاب وهو بدرجات متفاوتة، من شأن النوع الإنساني برمته"¹.

المقصود من هذا أن قانون تداعي المعاني يخضع لعوامل معينة تؤدي إلى تسلسل الأفكار، لأن إدراك الإنسان لمعاني الخارجية تخضع إلى التشابه التماس وكذا الترابط، وهذا مما يجعل معنى معين يؤدي بنا غلى معنى

¹. دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 80.

آخر مرتبط به وهكذا في كل المعاني التي تصادفنا، فهيوم يرى أن قوانين التداعي هذه تشبه قوانين الجاذبية بصفة الحتمية التي تجعل وظيفة العقل هي تقبل المدركات الحسية ليكون منها المعاني بطريقة آلية فهو يضرب لنا مثال كرة البلياردو ويقول " فحركة كرة البلياردو الثانية حدث متميز عن حركة الأولى وليس في الواحدة ما يوحي بأي إشارة إلى الأخرى " ¹.

يعني هذا أن **قانون التداعي المعاني** يفسر بما يسمى بالعلة، أي أن حدث بعده تكرار حدوث شيء آخر، حتى إن حضور الشيء الأول يجعلنا عن طريق تداعي المعاني دائما نفكر في حضور الشيء الثاني، ويعتبر أن كل أدوات البناء الفكرية مستخلصة من إحساساتنا الخارجية منها أو الداخلية، وأن مهمة العقل سوى مزج وتركيب هذه الإحساسات، وبهذا يرى بأنه لا يوجد هناك علاقة بين إرادة الإنسان التي يقوم بها.

وعن فكرة الاقتران بالنسبة ل**قانون تداعي المعاني** يقول " ... فإنه لا يبدو أن في الطبيعة حال واحدة من حالات الارتباط التي يمكننا تصورها، فكل الأحداث تبدو سائبة منفصلة، حدث يتبع حدث، ولكننا لا نستطيع أبدا أن نبصر أي رابط بينهما، فتبدو الأحداث مقترنة ولكنها لا تبدو أبدا مترابطة " ².

المقصود من هذا أن الظواهر مهما كانت متتابعة إلا أنها خالية من الترابط، فهيوم يؤكد على وجود اقتران بين الظواهر والحوادث إلا أنه يرفض وجود ما يسمى ترابط لأن هذا الترابط لا يحمل أي استنتاج لقدرة التأثير على الإطلاق، لأن من وجهة نظر هيوم أن هذا الترابط لا يحمل في الأصل أي مدلول، هذا أن الأحداث هي مجرد اطراد وتتابع دون إضافة إلى هذا التتابع أي أن الأحداث مجرد اطراد وتتابع، دون إضافة إلى هذا التتابع أي فكرة عن الضرورة واللزوم، لأن رفض فكرة الضرورة يؤدي إلى أن وجود أي حادثة تعتبر صدفة ويوضح هذا من خلال " أن أي حادثة توجد عقب حادثة أخرى فوجودها عقبها صدفة ولا يعبر عن أي لزوم فالغليان عقب الحرارة والحرارة عقب الحركة صدفة، كما أن نزول المطر عقب صلاتك صدفة " ³.

نعني هذا أن **التداعي** قائم على أساس الاقتران والتتابع الظواهر والأحداث، والفارق بين الحادثتين أن الأولى تتكرر على سبيل الصدفة بصورة مطردة، أما ظاهرة نزول المطر فهي لا توجد إلا أحيانا، وعليه فإن فكرة العلة والمعلول لا تعني مجرد تجاوز الظاهرتين مكانا أو زمانا، إذ كثيرا ما تتجاوز ظاهرتان زمانا ومكانا ولا ندرك أن بينهما

¹. دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 54.

². دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 106.

³. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 231.

علاقة العلة والمعلول، وإنما تعني الضرورة والحتمية، لنفرض "أنا رأينا" أ و "ب" قد اقترنا مرة واحدة، أن ذلك الاقتران لا يجعلنا نقرر في يقين أن هنالك رابطة بينهما¹.

الملاحظ من هذا أن مبدأ التكرار والتعود يجعلنا نفترض بين الظاهرة الأولى والظاهرة الثانية رابطة، مع أن هيوم يرفض وجود رابط وإنما وجود اقتران بين حادثتين، وبهذا يعني أن تعدد الأمثلة والتكرار هو الذي يمدنا بالمصدر القادر على مدحنا فكرة الضرورة، كما أن تعدد الانطباعات وليس هو مولد لفكرة الضرورة، لأن فكرة السببية في وجهة نظر هيوم ما هي إلا وهم، لأن البشر سبب هذا الاقتران جعلهم يؤمنون بأن شيء حدث في اعتقادهم تابع لحدوث شيء آخر، كما أن ملاحظة هذا التشابه في تعدد وتكرار الحوادث تولد في أذهاننا انطباعات جديدة يمثل النموذج الفعلي.

ومن خلال هذا يتضح فكرة التتابع والتكرار من خلال موقف هيوم "أن ما نراه في الحقيقة هو أن شيئين أو حادثتين تتابعتا في الحدوث أمام إدراكنا، يحدث لي انطباع حسي حين أرى الشمس في الصباح ثم تتبعه انطباع رؤية الضوء"².

المعنى من هذا أن ما حدث إنما هو مجرد تتابع أو تلازم بين انطباعين، وبهذا تكرار بين حادثتين لزم ذلك الاقتران وليس الترابط، فهو يعطي مثال عن "حين أريد تحريك عضو ما في جسمي ثم يليه تحريك ذلك العضو، أليست العلاقة بين الإرادة والحركة علاقة علة؟ يرد هيوم إننا لا نعرف معرفة دقيقة كيف يتم الفعل الإرادي ... إن معرفة العلاقة إنما هي العلاقة بين العقل والبدن"³.

الملاحظ من هذا أنه يمكن القول بأنه لا توجد علاقة بين إرادة الإنسان وحركة يده، لأن هيوم يرفض أن تكون إرادة الإنسان هي السبب أو العلة في حركة ذلك العضو، وبهذا فهو يرجع قانون العلية إلى قانون تداعي المعاني أي التشابه والاقتران في الزمان والمكان، وعليه "إن علاقة العلية ترد في مثل هذه الحالة إلى علاقتي التشابه والتجاوز، وهما علاقتان أصليتان من قوانين تداعي المعاني"⁴.

¹ محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 92.

² محمود فهمي زيدان، المرجع السابق، ص 106.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ إبراهيم مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة و النصوص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1987، ص 160.

وهذا يعني أن أساس قانون تداعي المعاني هو التجاوز في الزمان وكذا التجاوز في المكان، إضافة إلى هذا التشابه الذي يجعل الإنسان أن هناك علاقة ترابطية بين العلة والمعلول، لكن في حقيقة الأمر العلاقة بينهما مجرد تتابع واقتران ظاهرتين حدثتا في المكان والزمان واحد، لأن الارتباط ما هو إلى ميل تولده العادة.

ويتساءل هيوم عن ما هو المبدأ الذي يدفع الظواهر تتعاقب وتتابع؟ فيجيب " هذا المبدأ هو العادة أو الإلْف، ذلك أنه كلما نتج عن تكرر فعل مخصوص أو عملية مخصوصة ما ميل إلى تجديد ذلك الفعل عينه أو تلك العملية عينها، من غير أن يكون ذلك التجديد قسرا بأي استدلال، فإننا نقول دائما إن هذا الميل هو مبدأ أثر العادة"¹.

الملاحظ من هذا أن العلية في نظر هيوم لا تعني أكثر من مجرد فقد تكرر حدوث لا حق له، فإذا حضر الشيء السابق، فإننا نفكر في حضور اللاحق، وبهذا يعني إنما التداعي بين الأفكار فمثلا اشتغال اللهب يصاحبه بالضرورة الحرارة، وإن تكرر وقوع هذا الاقتران بين الحداث هما اللهب والحرارة، وهذا يؤدي إلى نشوء في الذهن علاقة تداعي بينهما، بحيث تؤدي فكرة أحدهما إلى فكرة الأخرى، وهذا كله تفسير الرابطة الضرورية بينهما، ومن هذا أصبحت العلاقة بين العلة والمعلول مجرد عادة فكرية لا غير.

وفي هذا يواصل دفيد هيوم قوله " ... عندما نصرح بموضوعين اثنين كالحرارة واللهب مثلا، أو كالوزن والصلابة، إذا تواترا اقترانهما، حملتنا العادة وحدها إلى أن نتوقع حدوث أحدهما من ظهور الآخر"².

المقصود من هذا أن مبدأ العادة هو الذي يجعل الحوادث والظواهر في ذهن الإنسان على شكل تكرر وتعاقب، فكل ما يتبع عن الأحداث فهو مجرد تكرر، هذا أن لا نستطيع رؤية من جسم مآله الحركة يدفع جسم آخر، وهذا ما يؤكد هيوم في قوله " ... لماذا نستخرج من ألف حالة نتيجة لا نقدر على استخراجها من حالة واحدة مع ذلك لا تختلف عنها إطلاقا... ولكنه لا يوجد إنسان واحد شاهد جسما واحدا يتحرك بعد أن دفعه إلى الحركة جسم آخر، واستطاع أن يستنتج أن كل جسم آخر سيتحرك بعد أن يتلقى مثل ذلك الدفع، إن كل الاستنتاجات المأخوذة من التجربة إذا هي من أثر العادة لا من أثر الاستدلال"³.

¹ دفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، ص 72.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ المصدر نفسه، ص 72-73.

المقصود من هذا أن تكرار الاقتران بين ظاهرتين أو حادثتين يصبو إلى ما سمي بالتعود، وعليه فجميع الاستنتاجات على علاقة العلة والمعلول هي إذن آثار للعادة، وعليه فكل ما ينتج عن العقل فهو مجرد عادة ذهنية كما أوضحها دفيد هيوم، ولا هي برهان عقلي، حيث اعتبر هيوم أن العادة جوهر نهائي حيث نسب إليها ظاهرة السببية واعتبر التكرار هو أساس وجود العادة، إذ أن توالي الأحداث ووقوعها على منوال واحد تكون لدى الإنسان عادة.

يقول هيوم " فالتعود إذن، هو المرشد الأكبر للحياة البشرية، إنه المبدأ الوحيد الذي يجعل الخبرة نافعة لنا، وهو وحده الذي يجعلنا نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث المشابهة لتلك التي ظهرت في الماضي، ومن دون تأثير التعود سوف نجعلنا تماما كل مسألة واقعية خارج ما هو مائل مباشرة للذاكرة والحواس"¹.

المقصود من هذا أن المعارف التي نستدل عليها في المستقبل قائمة على ما عرفناه في الماضي، وهذه تعتبر عادة ومجرد تعود على رؤية الشمس تشرق كل صباح سيبادر إلى ذهنه أنها ستشرق في المستقبل كل يوم، لكن هذا ليس بالأكيد لأن إشراق الشمس إذا أشرقت اليوم ليس هناك ضامن عقلي أو تجريبي على إشراقها غدا.

يرى هيوم أن مبدأ العادة يحيل إلى أسباب مطردة وثابتة في إحداث أثر ما، وعن فكرة الماضي والمستقبل وربطها لمبدأ العادة يقول " ويجعلنا التعود مصممين على إسقاط الماضي والمستقبل في كل تعليلاتنا، وإذا ما كان الماضي تام الانتظام والاطراد فإننا نتوقع الحادث بأكبر قدر من اليقين"².

المعنى من هذا أن فكرة التعود على تكرار الحدث تجعل الإنسان تتولد عنده في الذهن عادة ذهنية على أن ما وقع في المستقبل هو شبيهه لم وقع.

ويقول أيضا " ...عندما أقذف قطعة من الخشب في النار، فإن ذهني يميل مباشرة إلى تصور أنها تضرم النار ولا تطفئها، وانتقال الفكر هذا من السبب إلى المسبب لا يصدر عن العقل، بل يستمد أصله بالكامل من التعود والخبرة، وحيث إنه يبدأ أو لا لانطلاق من الموضوع للحواس المائل للحواس فإنه يجعل الفكرة، أو تصور اللهب، أقوى و أكثر حياة من أي رؤيا غامضة وهائمة تقوم بها المخيلة"³.

¹. دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 73.

². المصدر نفسه، ص 89.

³. المصدر نفسه، ص 84.

المعنى من هذا أن تصور العلية، وإحداث الظواهر وتتابعها قائم على أساس الخبرة والتجربة، ويتضح هذا من خلال أنه " ... يصبح المصدر التجريبي لتصور العلية، متمثلاً في إدراك تتابع بين حادثتين وتلازمهما متكررا، وإن إدراك هذا التلازم المتكرر يؤدي بعقولنا إلى تكوين عادة عن هذا الارتباط لدرجة أننا حين نرى الحادثة " أ " في المستقبل نتوقع حدوث " ب " التي ارتبط حدوثها في إدراكنا الماضي بحدوث " أ " ¹.

يمكن القول على أن العادة هي التي تجعلنا الانتقال من فكرة إلى أخرى ومن ثم فإن فكرتنا عن علاقة العلية ترجع إلى العادة، لأن كل ما يحدث هو وليد العادة.

في تصور هيوم لمبدأ العلية وجد أنها مجرد عادة نفسية فيقول في هذا " ... وعن اقتران معتاد بين هذا الشيء ما آخر، وبكلام آخر، أن يكون نوعان من الأشياء، الشعلة والحرارة مترافقين معا بصورة دائمة... سيكون بفعل التعود... إن الاعتقاد هذا هو بالضرورة حصيلة وضع الذهن في مثل تلك الظروف، وذلك عمل للنفس لا مرد له... شأنه شأن الشعور شغف الحب تنعم بفوائده... " ².

المقصود من هذا أن تصور العلية قد أرجعها ديفيد هيوم إلى الحالات النفسية، وفسرها تفسير سيكولوجي، ورأى بأن العادة تعزز الارتباط التخيلي الذي يجعل الذهن ينتقل من فكرة إحدى الواقعتين إلى فكرة الواقعة الأخرى، وبهذا يتولد الاعتقاد بحدوث تلك الواقعتين، وعليه ففكرة العلة ليست نسخة عن قدرة قد ندركها في الأشياء وإنما نسخة عن ذلك الانطباع الباطني أو التفكير الذي هو حس العادة.

إذن فتصور العلية المعنى منه هو " تصور ضروري، ولكن ليست الضرورة منطقية ولا قبلية، وإنما هي ضرورة نفسية أساسها إدراك تلازم زوج من الحوادث وارتباط ذلك التلازم في الذهن وتكوين عادة عن توقع ذلك التلازم في المستقبل، تلك الضرورة بالتوقع وتكوين العادة تؤدي إلى الاعتقاد بتصور العلية " ³.

المقصود من هذا أن فكرة العلية ترجع إلى التعود من الناحية السيكولوجية التي تزودنا بالاعتقاد في تصور العلية، وبهذا فهي تصور بعدي، أي مكتسب من الخبرة نتيجة العادة العقلية التي تؤدي إلى الاعتقاد بضرورة هذا التصور، وعلى هذا فإن الحواس هي التي تكشف عن طبيعة هذه العلاقة من واقع الخبرة، وبهذا تكون العلية مجرد

¹. ماهر عبد القادر محمد: مشكلات الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، بيروت، دط، 1998، ص ص 19 . 20.

². ديفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 75.

³. محمود فهمي زيدان، المرجع السابق، ص 108.

فكرة في ذهننا نشأة بفعل اطراد الظواهر وتتابعها في العالم الخارجي، هذا أن تكرار الحوادث يولد في الإنسان عادة حول تلك الحوادث، كما أنه يمكن القول إذا ما رجعنا للواقع المحسوس فإننا لا يمكننا الحصول على معطيات هذا العالم على انطباع خاص بفكرة الضرورة.

فموقف هيوم من العلية من خلال قوله " وهكذا، وبكلمة، فإن كل اثر هو حدث مستقل عن سببه، ولا يمكن إذن اكتشافه في السبب، وأول اختراع أو تصور له، يجب أن يكون اعتباطيا تماما، بل يجب حتى بعد أن يوحي بالأثر أن يبدو ترافقه مع السبب اعتباطيا أيضا، لأنه سيظل هناك آثار أخرى كثيرة"¹.

وبهذا المعنى يمكن القول على أن العلية هي اعتقاد نفسي مصدره الخبرة الحسية، ولكن هذا المبدأ لا يمكن أن يؤسس للاستقراء لأنه ليس قانونا موضوعيا كليا، وإنما هو قانون ذاتي وهذا أن كل ما هو ذاتي لا يمكن أن يوصف بالقانون.

من خلال هذا يمكن أن نستخلص على أن مبدأ العلية عند دفيد هيوم يقوم على مبدأ العادة النفسية، لأنه يرى بأن التتابع والتكرار في الحوادث يجعل الإنسان يتعود على تلك الوقائع والظواهر، وبهذا فتصور العلية يميل إلى أنه مجرد نزعة نفسية وعادة، وأن كل ما يخطر للعقل هو فقط عادة ذهنية.

¹. دفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ص 55.

المبحث الرابع: نقد محمد باقر الصدر للعلية عند دفيد هيوم.

من الانتقادات الموجهة لدفيد هيوم من خلال طرحه لمبدأ العلية وإيجاد انه عاجز على إثباتها وبهظا من بين الفلاسفة الذين وجهوا انتقادات لهيوم نجد محمد باقر الصدر الذي كان نقده متصل من خلال ماقدمه هيوم وماعجز عن الوصول اليه بالرغم من ايمانه بالمعطي " الحس " ومن خلال هذا طرح التساؤل التالي:

- كيف كان نقد السيد الصدر لهيوم؟

يقول السيد محمد باقر الصدر " فنحن اذ نؤمن بعنصر الوجود ليس هو المميز الأساس للاعتقاد عن التصور، نستند في ذلك أن العنصر قد يدخل في محتوى الفكرة، وتظل الفكرة رغم ذلك تصورا. فإذا قيل لنا مثلا : ((يوجد طائر له رأسان))، ولم نصدق ذلك فسوف توجد في ذهننا فكرة ((طائر له رأسان))، على مستوى التصور، فسوف نتصور وجوده أيضا دون أن نعتقد به" ¹.

الملاحظ من هذا على أن الصدر يخالف هيوم الذي يرى بأن الفارق بين التصور والاعتقاد في الإدراك، فالصدر في طرحه هذا يرى بأن وجود فكرة ما صادرة عن تصور لا تحتاج إلى اعتقاد، لأن الصدر يرى بان التصور هو الذي يجعل لنا معرفة ذلك الشيء موجود أم لا. لأن الصدر يرى بأن هيوم يربط الاعتقاد الاستقرائي بالعادة، لأن الاتجاه النفسي الذي اعتمده هيوم في تفسير الدليل الاستقرائي على حسب الصدر هو اتجاه يؤدي إلى تجريد الاستدلال الاستقرائي من اي قيمة موضوعية، هذا أن تعميم الحوادث الناشئة من العلة و المعلول هي في الواقع مرتبطة بالحس، التجربة والمشاهدة المتكررة للشيء.

و يواصل القول " فدخول عنصر الوجود في محتوى الفكرة لا يكفي ليجعل منها اعتقادا، بل إن عنصر الوجود كأبي عنصر من العناصر الأخرى التي ألف منها محتوى الفكرة، يصلح للدخول في التصور و الاعتقاد معا. فلا بد اذن من فرق آخر يميز بين فكرتنا ((عن طائر له رأسان)) و فكرتنا عن ((طائر له رأس واحد)) مادام بإمكاننا أن نفترض الوجود في محتوى من كل هاتين الفكرتين ، و تظل الفكرة الأولى رغم ذلك تصورا و الفكرة الثانية اعتقادا " ².

¹. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 97.

². المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من خلال هذا يتضح أن الصدر نقد هيوم في فكرة تبرير ذلك الفارق بين التصور و الاعتقاد، حيث يرى الصدر يجب إدخال المحتوى في العنصر الوجود يكمن في ادخال معنوي التصور والاعتقاد معا، كما يرى الصدر بأن التصور والاعتقاد يظهر على حسب عنصر الوجود، ومن خلال طرحه هذا يستنتج من أن الفارق بين التصور والاعتقاد يكمن في الادراك وليس في المحتوى وهذا ما يتفق مع هيوم ينما يختلف معه في تبرير ذلك الفارق.

يرى محمد باقر الصدر أن الفكرة ليست نسخة لانطباع مباشر حيث يقول في هذا " ونحن نميل إلى القول بأن بعض الأفكار ليست نسخا لانطباعات مباشرة، وإنما هي مفاهيم انتزاعية عن أفكار أخرى، هي بدورها نسخا لانطباعات مباشرة، ومن تلك الأفكار فكرتنا عن الوجود"¹.

المقصود من هذا أن الصدر ينقد هيوم الذي يرى بأن الأفكار هي نسخ عن انطباعات مباشرة تولدها تكرر الحوادث، لكن الصدر يراها بأنها مجرد مفاهيم لا أكثر. وبهذا يتضح له أن المفاهيم تحمل في طياتها انطباعات مباشرة، حيث يرى الصدر أن هيوم غير قادر على اثبات المادة، لأن المادة لا يمكن الكشف عنها بالتجربة الخالصة، لأنه لا يؤمن بالمعارف الأولية.

يقول الصدر " إن هيوم حين فسر الاعتقاد على أساس ما تزخر به الفكرة من حوية، افترض أن هذه الحيوية تستمدتها التجربة من الانطباع مباشرة، أو بصورة غير مباشرة إذا كانت مرتبطة بعلاقة العلة والمعلول بفكرة أخرى هي بدورها نسخة لانطباع، ولا مرتبطة بنسخة مباشرة من هذا القبيل ليست اعتقادا. وهذه النتيجة تناقض الواقع، لأننا جميعا نعلم أن عددا كبيرا من الاعتقادات يوجد في الذهن البشري دون أن يكون نسخة لانطباع أو مرتبنا بنسخة لانطباع بعلاقة العلة و المعلول "².

الملاحظ من هذا أن الصدر يرى أن الاعتقاد يوجد في الذهن، وليس نسخ عن انطباعات الخارجية، وأن الفكر لو كان محبوسا في حدود التجربة والحس لم يكن بوسعها أن يملك معارف مستقلة عنها، و بهذا يؤكد على أن هيوم أصبح له استحالة الاستدلال على مبدأ العلية بمناهج الاستنباط التجريبي.

¹.محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 98.

².المرجع نفسه، ص ص 99-100.

ويقول أيضا " إن كثيرا من الاعتقادات لا يرتبط بأي انطباع بالشكل الذي تصوره هيوم، وهذا يعني أن الفكرة ليست بحاجة لكي تكون اعتقاد أن تكون نسخة لأحد الانطباعات، أو مرتبطة بعلاقة العلية مع نسخة منه لكي تستمد منه حيوته وقوته "1.

المقصود من هذا أن الصدر يعارض هيوم في أن تكون الفكرة يجب أن تحمل في طياتها نسخة لانطباعات، وهذا ما يدعيه هيوم من خلال تفسيره لمبدأ العلية القائم في نظره على الانطباع الذي يولد في ذهن الانسان عادة لاغير، التي يرى أنها تتعلق بكثرة ما يتحسس به الفرد من تكرار في علاقة الاقتران بين ظاهرتين لكن الصدر يرى بأن هذا يناقض ما هو موجود في الواقع و أن الفكرة و إن كانت اعتقادا هذا لا يؤكد على أنها يجب أن تكون نسخة لانطباع.

ينقد الصدر هيوم فيقول " وأنا أرى أن الأفضل للفلسفة العقلية، التي تؤمن بأن مبدأ العلية قضية عقلية قبلية، أن تتجه بالقول أنه قضية أولية في العقل... إذ أكد في الوقت نفسه عدم إمكان الاستدلال عليها بالتجربة، وعجز الخبرة الحسية على إثباتها "2.

المعنى من هذا أن مبدأ العلية في نظر الصدر قضية عقلية، على عكس من هيوم الذي يرفض التسليم بأي قضية قبلية تحمل في طياتها ما يسمى بالأفكار الفطرية، كما ينقد الصدر هيوم في النقطة الثانية والتي هي أنه عجز على إثبات مبدأ العلية بالتجربة بالرغم أنه يؤمن بما هو معطى (حسي)، لأن هيوم كان هدفة من هذا إيجاد انطباع يشتمل على الضرورة وحتمية الارتباط بين حادثتين وفي هذا يقول الصدر " ويبدو أن هيوم لا يرى ذلك ممكنا، لأنه لا يتصور: أن بالإمكان الاستناد إلى التجربة والخبرة الحسية لإثبات شيء إلا إذا كان ذلك الشيء قد ظهر مباشرة في خبرتنا الحسية. وحيث أن خبرتنا بالحرارة والتمدد لم تنطبع عليها صفة الضرورة، ولم يتمثل فيها إلا تعاقب الحادثتين، فلا سبيل إلى الاستدلال على الواقع الموضوعي للعلية عن طريق التجربة و الخبرة الحسية "3.

1. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 101.

2. المرجع نفسه، ص 105.

3. المرجع نفسه، ص ص 107-108.

يتضح من خلال هذا أن الصدر يرى بالرغم من أن هيوم يؤمن بالمذهب التجريبي القائم على الحس إلا أنه عجز كل العجز على تبرير و تفسير مبدأ العلية، وهذا ما أدى الصدر إلى نقده الذي يرى أنه ليس طل ما هو موجود في الواقع يجب إثباته بالتجربة لأن ذا يتناقض مع ما هو موجود.

يقول الصدر حول عجز هيوم على تفسير الدليل الاستقرائي " وهكذا نستخلص بوضوح: أن أراء هيوم لا تصلح لتفسير الدليل الاستقرائي، لأن الدليل الاستقرائي لايزودنا فقط بقضايا فعلية، وإنما يزودنا أيضا بقضايا شرطية"¹. يتضح من خلال هذا أن هيوم بالرغم من رفضه للقضايا القبلية ومع إيمانه بأن كل المعارف مجرد اكتساب مصدرها التجربة، إلا أنه عجز على إثبات الدليل الاستقرائي واعتبره أمر ذاتي وبهذا فهو لجأ و اعتمد على المبرر السيכולوجي (النفسي).

وعن الاستقراء يقول الصدر "بل أن الاستقراء الذي اعتمده هيوم، لا يملك الشروط التي يجب توفرها في الاستقراءات الناجحة، لأن التعميم في الاستقراء الناجح لا يمتد إلى الأفراد التي يوجد بينها وبين الأفراد المستقراة فارق نوعي محدد... و فكرة العلية من قبيل الذهب في هذا المثال: فهب أنا فحصنا كل أنواع الأفكار الأخرى، فإن هذا لا يبرر أن نعمم النتيجة على فكرة العلية نفسها، مادامت العلية تختلف نوعيا عن الأفكار الأخرى"².

من خلال هذا يمكن القول على أن هيوم الاستقراء الذي اعتمده لا يحمل الشروط اللازمة التي من المعروف توفرها في الاستقراء الناجح، وهذا مادفعه إلى الاعتماد على الجانب السيכולوجي من أجل الوصول إلى نتائج يقينية، إضافة إلى هذا أن الصدر ينقد هيوم في استحالته على تبرير الدليل الاستقرائي من الناحية المنطقية.

يقول الصدر "... فالتكرار في الأمثلة عامل رئيسي في الدليل الاستقرائي، لا على أساس دوره السيכולوجي في تكوين العادة الذهنية، بل على أساس دوره الموضوعي في تخفيض قيمة احتمال الصدفة النسبية، وفقا لنظرية الاحتمال"³.

المعني من هذا أن الصدر لا ينفي ذلك التكرار وإنما يرفض أن يكون تبريره سيכולوجيا، وبهذا فهو يريد ذا مبرر منطقي يعتمد على القضايا المنطقية.

¹. محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 112.

². المرجع نفسه، ص 109.

³. المرجع نفسه، ص 113.

يبين الصدر الفارق بين الاستدلال الاستقرائي وقانون المنبه الشرطي من خلال قوله "...أن الاستدلال الاستقرائي لا يمكن أن يفسر على أساس الاستجابة للمنبه الشرطي، لأننا نستخدم الدليل الاستقرائي بشككين: فتارة تستدل استقرائياً على أن(ب) ستوجد فعلاً، حين نرى(أ) موجودة. وأخرى نستدل استقرائياً على العبارة الافتراضية العامة القائلة: كلما وجد (أ) وجد (ب) عقيبتها. فالمستدل بالاستقراء في الحالة الأولى واقعة خاصة، والمستدل بالاستقراء في الحالة الثانية هو التعميم الذي تتجاوز فيه حدود التجربة و الملاحظة"¹.

لكن المعنى من هذا أن الصدر يرى بأن هناك فرق بين الاستدلال الاستقرائي و قانون المنبه الشرطي، الذي يعتبر أن لكل واحد منهما شروط خاصة به، لكن الصدر في هذا يفند هيوم الذي يؤكد على أن الاستدلال و قانون المنبه الشرطي لا يوجد فرق بينهما و أنهما ذو معنى واحد، فالصدر يرى على عكس من ذلك بأن النتيجة المستدل عليها استقرائياً تعني شيء جديد تختلف عن كل الاستنتاجات المتقدمة، وهذا ما جعله الاقرار بوجود فارق بينهما.

من خلال هذا نستخلص على أن السيد محمد باقر الصدر نقده لهيوم جاء من هيوم للأفكار الفطرية وعجز عن اثبات مبدأ العلية بالتجربة والخبرة الحسية بالرغم من إيمانه بها، لأن هيوم بهذا يرد كل شي للعادة فهذا يعتبر مناقضاً للواقع كما صرح به الصدر.

من خلال هذا يمكن أن نلخص إلى أن :

- الدافع الذي أدى هيوم إلى نقد العلية يتمثل في أن كل ما نصل إليه من معرفة لا بد الوصول إليه عن طريق الحس و العقل معا.
- يرى هيوم أن العقل وحده ليس قادر على إثبات مبدأ العلية لأنها لا تنشأ عن التفكير العقلي.
- يؤكد هيوم بالرغم من أن كل ما تصل إليه عن طريق التجربة إلا أنها لا تحمل في طياتها انطباعات من الضرورة، كما لا يمكن الاستدلال عليها بالتجربة، وعجز الخبرة الحسية على إثباتها.
- كما يؤكد هيوم على أنه لا يوجد علم قبلي مستقل عن الخبرة الحسية.
- يرى هيوم أنه لا توجد صفة تنطبع بها الحواس، وهذه الصفة التي تربط المعلول بعلة ربطا يجعل ذلك المعلول نتيجة لعلة.

¹ محمد باقر الصدر، المرجع السابق، ص 118.

- يوضح هيوم من خلال دراسته للمشكلة الاستقرائية على أن تفسيره يكون تفسيراً سيكولوجياً.
- يعتبر هيوم أن العلية مجرد عادة ذهنية تنشأ عن التكرار لأنه يعتبر حدوث حادثة ما تتبعها حادثة أخرى أنه يولد في العقل الإنساني عادة لأن هيوم ينكر وجود رابطة ضرورية بين العلة والمعلول ويؤكد غل أن كل ما يحدث مجرد تعود، لأن العادة الذهنية تعتبر أساس مبدأ العلية و الإستدلال الإستقرائي لدى هيوم.
- كما يعتبر أن العادة تنشأ من تكرار اقتران حادثتين في الخبرة الحسية للإنسان.
- من بين الانتقادات التي وجهت لهيوم نجد الصدر حيث ينقده في كثير من المسائل من بينها رفضه للأفكار القبيلة، وعجزه على تبرير الدليل الاستقرائي إلا بالمبرر السيكولوجي، إضافة نقده في عجزه على إثبات مبدأ العلية بالتجربة.



خاتمة



وفي ختام دراستنا هذه نخلص إلى أصالة **هيوم** في تحليله لمبدأ العلية، و ذلك من خلال اعطاء تمييز بين الأفكار والانطباعات واعتبر ان كل ما يصدر عن الانسان من انفعالات و سلوكات... كلها مرتبطة بالتجربة الذي أكد على أن كل المعارف هي من قبيل الخبرة الحسية، الذي حاول من خلاله أن ينزع طابع الضرورة، وأن يبرز أن علاقة السبب بالنتيجة علاقة قائمة على العادة فقط، بمعنى أن تفسيره لها هو تفسير سيكولوجي (نفسي).

فهيوم يعطي أولوية الانطباعات الحسية على الافكار، فالانطباعات هي الاصول. وبنا على ذلك، فما من فكرة بذات قيمة، وذات وجود، اذا كنا لا نستطيع تعيين الانطباع أو الانطباعات الصادرة عنها، كما يخلص إلى نقد الافكار الفطرية، و أنكر وجودها، لأنه يرى بأن ما يصدر عن الإنسان هو راجع إلى التجربة لا العقل، لأن هيوم يعتبر أن ما يصدر عن العقل هو مجرد عادة ذهنية، وأن المعرفة كل معرفة هي معرفة انطباعية حسية. والأفكار العامة المجردة ليست، في نظر «هيوم»، غير أفكار عن أشياء وانطباعات جزئية، فالألفاظ عنده يعتبرها أفكار مستمدة ومكتسبة من المشاهدة والتجربة، الحسية والانطباعية والعينية.

فالأمر بالنسبة **لهيوم** لا يعود للضرورة العقلية أو أفكار قبلية، وإنما يعود للتجربة والعادة، فهيوم يرى بأن حدوث نتيجة معينة لا تعني مباشرة أن لها علاقة لازمة مع سببها، وبهذا يرى هيوم إثبات أن العلية لا يكشف بالعقل وإنما بالتجربة، كما حاول هيوم من خلال دراسته لهذا المبدأ إظهار على أن العلم القائم على العلية ماهو إلا مجرد معتقد، فهو يربط كل ظاهرة أو حادثة بالتتابع والتعاقب، ولهذا يؤمن بما هو تجريبي، إلا أنه يرى بأن لا العقل ولا التجربة يمكنهما تأكيد العلاقة الموجودة بين العلة والمعلول.

يرى هيوم إن ملاحظة هذا التشابه المتكرر تولد في أذهاننا انطباعاتاً جديداً يمثل النموذج الفعلي لفكرة الضرورة، هذا هو الإنطباع الذي يمثل في نظر هيوم هو اصل فكرة السببية، بفضل هذه العلاقة الجديدة علاقة الترابط المستمر يمكن لنا أن نقيم استدلالاً من موضوع إلى آخر أو من وجود موضوع إلى آخر. ولكن الكشف عن هذه العلاقة لا يغير أي شيء مما قيل حول فكرة الترابط الضروري، إن تكرار انطباع في الماضي حتى إلى ما لا نهاية لن يؤدي أبداً إلى فكرة أصيلة كفكرة الترابط الضروري. يخلص هيوم إلى القول بأنه في تجربة سببية لا يمكن الكشف عن أكثر من الاطراد بين الأسباب والنتائج، وهذا هو أساس ما يُعرف اليوم بنظرية الاطراد ، إن ما يسمى بالترابط المفترض وجوده بين الأشياء الممثلة للأسباب والنتائج في حالة مفردة ليس إلا وهما ، لا يمكن أن تنشأ الفكرة المقابلة لهذا الترابط إلا

تشابه عدد من الحالات المفردة للوقائع السببية التي تبدو كلما حضرت مترابطة باستمرار، وكلما ظهرت واحدة من هذه الوقائع يحمل العقل، بفعل العادة، على انتظار الواقعة الموالية، هذا هو الشعور الذي يجعل الإنسان يخلق في ذهنه إنطباع إمتلاك فكرة الترابط الضروري.

فقد اعتبر العادة جوهرًا نهائيًا ونسب إليها ظاهرة السببية ، ووضع التكرار الآلي في أساس وجود العادة. فجعل إحتمال الأسباب هو الذي يسيطر على الناس وذلك على أساس تتابعات سابقة متجانسة حدثت الأمور على منوالها. إذ إنّ توالي الحوادث ووقوع الحوادث المتجانسة على منوال واحد تُكون لدى الإنسان عادة، وهذه العادة تصبح توقعًا نفسيًا لحوادث أخرى متشابهة. وهذه العادة تزداد تثبيتاً ورسوخاً مع التكرار الآلي المتجانس ، وعليه فإنّ الإنسان يزداد وثوقاً من توقعاته المستقبلية ، مبدأ العلية هو مبدأ يستمد قوته من التجربة والتكرار. كما اعتبر أن مبدأ العلية ليس شبيه لا بمبادئ المنطق ولا الرياضيات.

يرى **دفيد هيوم** أن مبدأ العلية موجود في الذات الإنسانية، وليس في الأشياء الخارجية. أكد على أن البحث عن الدوافع الأولى للسلوك البشري يجب الانتهاء بها إلى الإحساس والعاطفة. و بأن العقل لا يمكن له تشكيل دافع سلوكي، لأن العقل ما هو إلا ملكة منظمة لما يتلقاه الإدراك من انطباعات على المستوى المعرفي. ويؤكد **هيوم** أن مبدأ العلية ما هو إلا تتابع وتكرار للحوادث، وهذا ما يسمى بالعادة. توصل إلى أن سبب حضور الأفكار في الذهن تعتبر مجرد عادة عقلية، كما أنه يؤكد بأن العلاقة التي تكمن بين العلة والمعلول هي وليدة الفكر.

وعليه يمكن ان نخلص في الأخير أن مبدأ العلة عند **هيوم** قد ارتبط بالعادة، لأن تكرار الحادثة يولد في الإنسان ما يسمى بالطبع، ولهذا فهي تلعب دورا كبيرا في تطور العلم الحديث، إلا أن الأمر يبقى محتمل لا يصل إلى نتيجة يقينية.

فهرس الأعلام والمصطلحات

فهرس الأعلام:

- 1 - الفرابي: "Al-farabi" (260هـ/339هـ)، فيلسوف مسلم من المذهب الشيعي، درس منطق الفلسفة...
لقب بالمعلم الثاني، أراد البرهان له رسالة في آراد أهل المدينة الفاضلة، تأثر بجمهورية أفلاطون، من مؤلفاته: كتاب الجمع بين رأيين الحكيمين (أفلاطون وأرسطو)، إحصاء العلوم، كتاب السياسة المدنية.
- 2 - ابن سينا: "Ibn sina" (370هـ/427هـ)، عالم وطبيب مسلم، اشتهر بالطب والفلسفة، درس على دعاة إسماعيليين، تعلم الفقه القرآني، قرأ كتاب لأرسطو باسم "مابعد الطبيعة"، من مؤلفاته: كتاب الإشارات، الشفاء، النجاة في المنطق و الإلهيات.
- 3 - أبو حامد الغزالي: "Al-ghazali, Abu Hamid" (450هـ/505هـ)، فيلسوف ومتكلم فقيه، ومتصوف عربي، يعتبر من أبرز مفكري العصر الذهبي في الإسلام، عرف كاحد مؤسسي المدرسة الأشعرية في علم الكلام، من مؤلفاته: كتابه الشهير المنقذ من الضلال، تحافت الفلاسفة.
- 4 - ابن رشد: "Ibn rochid" (520هـ/595هـ)، فيلسوف عربي، درس الفقه القرآني والكلام والفلسفة... يعتبر من أهم فلاسفة الإسلام، فهم بعض النظريات لأفلاطون و أرسطو، اتهمه علماء الأندلس بالكفر والإلحاد، كان شارحا لأرسطو، كان معارضا لأفلاطون... من مؤلفاته: تحافت التهافت، شروحات لأعمال أرسطو: الشرح الأكبر والأصغر والأوسط.
- 5 - أرسطو: "Aristote" (322-384 ق.م)، فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون و معلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، كما كان أعظم نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني، يعتبر أحد أهم مؤسسي الفلسفة الغربية، من مؤلفاته: المنطق، المعرفة، الأخلاق والسياسة.
- 6 - أفلاطون: "Platon" (347-427 ق.م)، فيلسوف يوناني كلاسيكي يعتبر أعظم فيلسوف في العصور القديمة و آخر ملوك أثينا، يعتبر تلميذ سقراط حيث وضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، من مؤلفاته: محاورات أفلاطون.

7 -	رنيه ديكرات: "Descarte, Rene" (1596-1650)، هو فيلسوف فرنسي رائد الفلسفة في العصر الحديث، يعتبر أول فيلسوف محدث وواحد من أعظم الرياضيين، كان على إطلاع واسع بالتقدم العلمي في أوروبا، من أهم مؤلفاته: مقال عن المنهج، تأملات في الفلسفة الأولى.
8 -	جون لوك: "Locke, john" (1632-1704)، فيلسوف انجليزي، التحق بجامعة اكسفورد سنة 1652، درس الأدب والفلسفة في بادئ الأمر، ثم الطب، عارض نظرية الحق الإلهي المقدس وقال أن الاختبار أساس المعرفة، هو ذا نزعة تجريبية، من بين الفلاسفة الذين انتقدوا الأفكار الفطرية، من مؤلفاته: مقالة في العقل البشري، مقالة تتعلق بالأصل الحقيقي واستمرار و نهاية الحكومة الأهلية، بعض الأفكار عن التربية.
9 -	جورج بركلي: "Berkeley Georg" (1685 - 1753)، هو فيلسوف يعتبر من أهم مساندي الرؤية الجوهرية في القرن الثامن عشر الميلادي، ادعى بركلي انه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادي لا يعدو أن يكون مجرد فكرة في عقل الله. وهكذا فإن العقل البشري لا يعدو أن يكون بيانا للروح. من أهم مؤلفاته: مقالة نحو نظرية جديدة في الإبصار، مقالة تتعلق بمبادئ المعرفة البشرية.
10 -	هيوم، دفيد: "HUME. DAVID"، عاش ما بين (1711 / 1776) فيلسوف ومؤرخ وعالم اقتصاد اسكتلندي، ولد وتوفي في ادنبره، هو مادي، حسي تجريبي ملحد أهم كتبه: بحث في الطبيعة الإنسانية، ثلاث أجزاء، وفحص عن الفهم الإنساني، وكذا عن مبادئ الأخلاق، وله كانت محاورات في الدين الطبيعي.

فهرس المصطلحات:

1 - احتمال "Probabilité": ما يمكن توقع حدوثه يقول الجرجاني: " الاحتمال مالا يكون تصور طرفيه كافيا، بل يتردد في النسبة بينهما، ويراد به الإمكان الذهني".

2 - الجوهر "Substance": عند الكندي وهو القائم بنفسه، وهو الحامل للأغراض لم تتغير ذاتيته موصوف لا واصف، أما عند ابن سينا يقول في هذا " والذي ليس هو في موضوع قائم بذاته متقوم في ذاته، معين تعينا أوليا بماهية باقية ما بقي هو".

3 - الحكم "Jugement": وهو الحكم الذي يثبت محلولا لموضوع أو ينفيه وعليه يقوم المنطق الحملي الذي يقابل منطق العلاقات، ويشمل القضية الحملية و شرطها.

4 - الإرادة "Volonté": تصميم واع على أداء فعل معين ويستلزم هدف ووسائل لتحقيق هذا الهدف

5 - الاستدلال "Inférence": عند الفلاسفة قول معبر عن لزوم شيء من شيء، وهذا القول مؤلف من مقدم وتالي وأداة اللزوم الرابطة بين المقدم والتالي.

6 - الاستقراء "Induction": عند الخوارزمي تعرف الشيء الكلي بجميع أشخاصه، أما عند ابن سينا هو حكم على كلي لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكلي، إما كلها وهو الاستقراء التام و إما أكثرها وهو الاستقراء المشهور كأن يحكم بالأكبر على الواسطة لوجود الأكبر في الأصغر.

7 - الاقتران "Concomitante": مصاحبة ظاهرة لأخرى بصفة مطردة وقانون الاقتران أحد القوانين الثلاثة التي فسر بها تداعي المعاني، والاقتران الزماني أو المكاني أو الذهن.

8 - الأصل "Origine": ما يبني عليه الشيء أو ما يتوقف عليه، ويطلق على المبدأ في الزمان أو على العلة في الوجود.

9 -الأصولية " **For déments**": هي موضع علم الكلام أي أصول الدين وهي ثلاث: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وأصول الفقه هي أدلته الكلية: القرآن والسنة والاجتهاد، وفي هذا العلم يستعمل الأصل للدلالة على الحكم الذي ورد في النص.

10 -الشك "**Doute**": هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقبل هو ما استوى طرفاه وهو الوقوف بين لا يميل القلب إلى أحدهما على الآخر، أما **ديكارت** لا يستخدمه إلا كوسيلة للوصول إلى اليقين أول واضح بذاته، ولا يأخذ الشك موقفا نهائيا له، يقول ديكارت " يجب النظر إلى كل ما يمكن أن يوضع موضع الشك على أنه زائف".

11 - العادة "**Habitude**": الأصل اللاتيني للفظ **Habitus** من الفعل **Haber** أي يمتلك والعادة ميل إلى تكرار أفعال معينة، عند أرسطو: الفضيلة عادة وهي عادة الوسط الفضائل.

12 - العدم "**Néant**": هو ضد الوجود، فهو نفي الشيء من شأنه أن يوجد، فالمعتزلة ترى بأن العدم ذات ما، وعدوا المعدوم شيئا، أما الوجوديون هو المتضمن في الوجود.

13 -العلة "**couse**": ما يتوقف عليه وجود الشيء وهي قسمان: الأول ما يتقوم به الماهية من أجزائها ويسمى على الماهية والثاني ما يتوقف عليه اتصاف الماهية المتقدمة بأجزائها بالوجود الخارجي ويسمى علة الوجود. وعلة الماهية إما أن لا يجب بها وجود المعلول بالفعل بل بالقوة وهي العلة المادية وإما أن لا يجب بها وجوده وهي العلة الصورية وعلة الوجود، إما أن يوجد منها المعلول أي يكون مؤثرا في المعلول موجدا له وهي العلة الفاعلية... انظر: مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 434.

14 -العلة الأولى "**La cause première**" حسب أرسطو تلك التي لا علة لها.

15 - المشاهدة "**Contemplation**": هو رؤية عميقة شاملة لموضوع الفكر إلى حد نسيان الذات والأشياء الأخرى.

16 -المقدم "**Antécédent**": ما يقابل التالي، وهما حدان في نسق يقتضي أن يكون أحدهما متقدما على الآخر منطقيا أو زمنيا، مثل التلازم بين العلة والمعلول، وفي القضية الشرطية يطلق على الجزء.

17 -

تعلييل " **Causation** ": قبل التعليل هو إظهار عليه الشيء سواء كانت تامة أو

ناقصة، والصواب أن التعليل هو تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر.

18 -

ذاتي "Subjectif": ما يخص الفكر البشري وحده في مقابل ما يخص العالم، وبهذا المعنى يقال عن

الكيفيات إنها ذاتية من حيث أنها تختلف من شخص إلى آخر.

19 -

قبلي " **Apriori** ": سابق على التجربة سبقا منطقيا ولا يفسر بالتجربة، وعند أرسطو القبلي هو الحكم

الذي يصدر عن العلم بعلة الشيء من حيث أن العلة متقدمة على المعلول.

20 -

علة غائية " **Cause finale** ": هي التي لأجله الشيء أو الفعل، وهي على بماهيتها ومعناها علية العلة

الفاعلة ومعلولة لها في وجودها.

21 -

علة فاعلية " **Cause efficace** ": كل ما يظهر للوجود فظهوره علة. وهذا أدق من قول الفاتلين لكل

معلول علة فإن لفظ العلة يتطلب معنى العلة وهذا دور منطقي.

22 -

مبدأ عقليا (مبادئ العقلية) " **Principes Ratimnils / Prinsipe Mentule** ": هي

جملة الحقائق البديهية بذاتها التي تستند إليها جميع الاستدلالات، وهذه المبادئ تتسم بثلاث سمات جوهرية:

كلية، ضرورية، و أولية.

23 -

ميكانيزما " **La mécanique** ": حسب التحليل النفسي عملية لاشعورية تحول دون الشعور بالقلق

الذي يحدثه الصراع القائم بين المطالب الغريزية والخوف من ارتكاب الإثم.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن:

1. سورة الكهف، الآية " 83 ، 84،85"، دس.

-المصادر والمراجع:

أ - المصادر:

1 - باللغة العربية:

1 - هيوم دفيد: تحقيق في الذهن البشري، ت د. محمد محجوب، دار بيروت، لبنان، ط1، 2008.

2 - هيوم دفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ت د. موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

2 - باللغة الأجنبية:

1 - David Hume: A treatise of Human Nature. Part . S IV. Rcpunted from. the Original Edition Three and Edited. By L.A Selbybigge, M. Alascford, clarendon, 1739.

2 - David hume : **An Enqieur Concering Human Understanding.**

ب - المراجع:

1 - ابن رشد: شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان، ت د. عبد الرحمن بدوي، الكويت، ط1، 1984.

2 - ابن رشد: تهافت التهافت، ت د. سليمان دنيا، دار المعارف، كرونيش النيل، القاهرة، ط3، دس.

3 - ابن سينا: الشفاء، ت. الأب قنواقي، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1952.

4 - أبودية أيوب: العلم والفلسفة الاوربية الحديثة من كوبرنيلف إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

5 - أحمد امين زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1935

6 - ألان شالمرز: نظريات العلم، ت. الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999.

7 - الغزالي الامام ابي حامد: مقاصد الفلاسفة، ت. محمود بيجو، دمشق، ط1، 2000.

- 8 - الغزالي: **المستصفى في علم الاصول**، ت. عبد الشافعي محمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993.
- 9 - الغزالي: **تهافت الفلاسفة**، ت. د. سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط 6، دس.
- 10 - الفارابي أبو نصر: **اراء اهل المدينة الفاضلة**، ت. د. نادر البير نصري ، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 2، 1986.
- 11 - النشار علي سامي: **مناهج البحث عند مفكري الإسلام " واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي "**، دار النهضة العربية، بيروت، ط 3، لبنان، 1984.
- 12 - باقر الصدر محمد: **الأسس المنطقية للاستقراء**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط 5، 1986.
- 13 - بتراند راسل: **حكمة الغرب " الفلسفة الحديثة المعاصرة "**، ت. فؤاد زكريا، 1983.
- 14 - جيمس وليام: **بعض المشكلات الفلسفية**، ت. د. الشنيطي محمد فتحي ، مصر، د ط، د س.
- 15 - دولوز جيل: **التجريبية و الذاتية " بحث في الطبيعة البشرية وفقا لهيوم "**، ت. اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، ط 1، لبنان، 1999.
- 16 - ديكارت رنيه: **تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى**، ت. د. كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط 4، 1988، التأمل 3.
- 17 - ديكارت رينه: **مقال عن المنهج** ، ت. محمود محمد الخضير، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1930، القسم الرابع.
- 18 - ريشنباخ هانز : **نشأة الفلسفة العلمية**، ت. فؤاد زكريا، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الاسكندرية، القاهرة، د ط، 2004.
- 19 - زيدان محمود فهمي: **الاستقراء والمنهج العلمي**، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، دط، 1977.
- 20 - ستيس وولتر: **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ت. عبد المنعم مجاهد مجاهد ، دار الثقافة، القاهرة، د ط، 1984.
- 21 - سكيريك غنار وغيليجي نلز: **" تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة الى القرن 20 "**، ت. حيدر حاج اسماعيل، المنطقة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2010.
- 22 - طاليس ارسطو: **الطبيعة**، ت. بن حنين اسحاق . بدوي عبد الرحمن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، دس، ج.

- 23 - طاليس ارسطو: الكون والفساد، ت. احمد لطفي السيد، دار القومية، القاهرة، مصر، د ط.
- 24 - طاليس ارسطو: دعوة للفلسفة (بروتريتيقوس)، ث، د. مكاوي عبد الغفار ، دار المطابع الهيئة المصرية، د ط، 1987.
- 25 - طاليس ارسطو: كتاب النفس، نقله وترجمه. د. الأهواني احمد فؤاد ، دار احياء الكتب العربية، ط1، 1949.
- 26 - طاليس ارسطو: ما بعد الطبيعة، دار ذو الفقار، اللاذقية، دمشق، ط1، 2008.
- 27 - كرم يوسف: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ط5، دس.
- 28 - عبد القادر محمد ماهر: مشكلات الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، بيروت، د ط، 1998.
- 29 - فحري ماجد: طاليس ارسطو "المعلم الاول"، دار المكتبة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، د ط، 1958.
- 30 - مصطفى ابراهيم ابراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ط، د س.
- 31 - مصطفى ابراهيم ابراهيم: الفلسفة الحديثة والنصوص، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، د ط، 1987.
- 32 - مصطفى ابراهيم ابراهيم: منطق الاستقراء " المنطق الحديث"، سنة المعارف، الاسكندرية، د ط، 1999.
- 33 - نجيب محمود زكي: قصة الفلسفة الحديثة، المطبعة لجنة التأليف و الترجمة، القاهرة، دط، 1936.
- 34 - نجيب محمود زكي: نافذة على فلسفة العصر، ت.د. محمد الريمحي، د ط، 1990.
- 35 - نصري هاني يحي: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، دار المجد، بيروت، لبنان، ط 1، 2002:
- 36 - هويدي يحي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة، القاهرة، مصر، د ط، 1993:
- 37 - هيدغر مارتن: مبدأ العلة، ت.د. نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات، دط، دس.
- ج- القواميس والمعاجم:
1. مذكور ابراهيم: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، د ط، 1983.
2. طرايوشي جورج: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 2006.
- د-الموسوعات:

1. لالاند اندري: " الموسوعة الفلسفية " ، ت. خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط 1،
2001، ج 1.

هـ-المقالات:

1. بسيوني عمرو: الأسس الاعملىة للإلحاد " مشكلة العالم نموذجاً"، www.nama.center.com.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المحتويات	الصفحة
شكر وتقدير	
إهداء	
مقدمة	
الفصل الأول: العلية قبل دفيد هيوم.....	[25-5]
المبحث الأول: العلية عند فلاسفة اليونان.....	[10-5]
المبحث الثاني: العلية عند فلاسفة الإسلام.....	[20-11]
المبحث الثالث: العلية عند فلاسفة العصر الحديث.....	[24-21]
الفصل الثاني: في مفهوم العلية عند دفيد هيوم.....	[43-27]
المبحث الأول: نقد الأفكار الفطرية عند دفيد هيوم.....	[35-28]
المبحث الثاني: مفهوم العلية عند دفيد هيوم.....	[43-36]
الفصل الثالث: موقف هيوم من مبدأ العلية.....	[70-45]
المبحث الأول: نقد هيوم للعية.....	[50-45]
أ- من حيث الجانب العقلي.....	[48-45]
ب- من حيث الجانب التجريبي.....	[50-49]

المبحث الثاني: المشكلة المنطقية للإستقراء عند هيوم.....[57-51]

المبحث الثالث: العادة وتداعي المعاني في تفسير الظواهر عند دفيد هيوم.....[58-

[64

المبحث الرابع: نقد محمد باقر الصدر للعلية عند هيوم.....[69-65]

خاتمة.

فهرس الأعلام والمصطلحات.

قائمة المصادر والمراجع.

